النَّسْقُ في سورة الضحى
مستوياته ولطائفه

دراسة نظرية تحليلية بيانية

دكتور

أحمد حسن يحيى المِرّاح

قسم اللغة العربية وآدابها - كلية العلوم الإنسانية

جامعة الملك خالد - أبها المملكة العربية السعودية

الملخـــــــص

النَّسْقُ أحد المفاهيم الأساسية المتداولة في الدّرس البياني العربي، وهو مفهوم يطلق على ترتيب عناصر تكوين الكلام الصغيرة والكبيرة وتواليها وتتابعها في الكلام الواحد [النصّ] من أوّله إلى آخره، وهو بهذا عنصر كلّي أساسيّ حاضر في كلّ كلام؛ تتعاضد في تحقيقه مجموعة أدوات التكوين الخطّي الجزئية في الكلام على المستويين النحوي وما فوق النحوي. ونظرا إلى أهميّة هذا العنصر الكلّي من عناصر تكوين الكلام، ونظرا لحاجته إلى المزيد من التحرير والتشخيص من جهة مفهومه ومحدِّداته الأساسيّة، ونظرا لتجلّيه على صورة بالغة التميّز في القرآن الكريم عموما، وفي سورة الضّحى على نحو خاصّ؛ فقد جاءت هذه الدراسة (النظرية/ التحليلية)، لدراسة هذين الجانبين دراسة بيانية موضوعية دقيقة، واستطاعت ــ بفضل الله ــ تحقيق أهدافها النظريّة المتمثّلة في تتبّع دوَرَان مصطلح "النسق" في مؤلفات العلماء، وإشاراتهم إليه، وفهمهم له، وتطبيقاته عندهم، ومن ثم تحرير مفهومٍ دقيق لهذا المصطلح المهم، وبيان محدداته على ضوء مفهومه عند العلماء، والتمييز بينه وبين المصطلحات التي تتقاطع معه في بعض الجوانب، كما تمكّنت هذه الدراسة من تحقيق أهدافها التطبيقية في دراسة النّسق في سورة الضّحى، والكشف التحليلي البياني

المستقصي الدقيق عنه من جهة وجوده في السورة ومستوياته ووجوهه، والكشف عمّا يقوم عليه النسق ــ على تلك المستويات والوجوه ــ من علل ومسوّغات وعلاقات بيانية، وبيان ما ينطوي عليه من دقائق وأسرار ولطائف، وقدّمَتْ هذه الدراسة بمعالجتها هذه نموذجا للدّرس البياني التطبيقي في هذا الجانب المهم من جوانب تكوين الكلام العربيّ، محقّقةً بذلك خطوة في مسعي الباحث إلى تحويل المعرفة النظرية البيانية العربية الأصيلة إلى أدواتٍ منهجية تحليلية تطبيقية؛ تُكتَشفُ بها عناصر تكوين الكلام العربي وخصوصياته ومزاياه ولطائفه البيانية.

الكلمات المفتاحية: النَّسْق، التحليل، البيان، التحليل البياني، نسق الكلام، سورة الضحى.

دكتور

أحمد المزّام

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم الإنسانية،

جامعة الملك خالد، أبها، المملكة العربية السعودية.

aassire@kku.edu.sa

Abstract

Concinnity (*Al-nasq*) is one of the widely used concepts in the eloquent (*Al-byani*) rhetoric literature, which refers to the arrangement of textual elements forming small and large sentences and their sequences in the speech [the text]. It is thus an essential element present in every speech resulting from the linear combinatorial tools used at the grammatical and super grammatical levels. The present study is a theoretical/analytical study conducted due to the need for more examination of this term and its main determinants and due to its extremely distinguished manifestations in the Holy Quran in general, and in Surat Al-Duha in particular. From a theoretical point of view, this study was able to track the usage of the term in the literature and its limitations and was able to distinguish it from the other terms that intersect with it in some respects. This study was also able to achieve its analytical/applied objectives by focusing on Surat Al-Duha and investigating the instances of this notion, its levels, and its faces. Finally, this study provided a model for the applied (eloquent) rhetoric studies converting the original Arabic theoretical rhetoric knowledge into applied analytical methodological tools. Additionally, it discovered the

elements of the composition of Arabic speech, its peculiarities and characteristics.

Keywords: Concinnity, analysis, eloquent, eloquent analysis, speech.

Ahmad Almazzah
Classical Arabic Rhetoric and Literary Criticism, Department of Arabic Language and Literature, King Khalid University, Abha, KSA
E-mail: aassire@kku.edu.sa

أ. فكرة الدراسة

نشأت فكرة هذه الدراسة بعد أن لاحظ الباحث أن للنسق في سورة الضحى –خاصة– طبيعة بالغة التميّز والكمال، من حيث تعدد مستوياته ووجوهه، ومن حيث نوع ما يقوم عليه من مسوغات وعلل وعلاقات، وبديع ما يكمن فيه من لطائف ودقائق، وما يتسم به من متانة ودقة وإحكام؛ مما جعل هذا العنصر من عناصر تكوين السورة الكريمة جديرا بدراسة تحليلية بيانية خاصة، وعندما تم البحث – بقدر ما هو متاح – عمّا إذا كان هذا الجانب في السورة قد درس سابقا؛ لم يهتد الباحث إلى دراسة علمية موضوعية محيطة به، ولم يجد من ذلك سوى إشارات ولفتات نفيسة(١)؛ في مؤلفات علماء التفسير وعلوم القرآن والمناسبة والبيان؛ لكنها ــ على نفاستها ــ لا تعدو أن تكون ومضات عجلى وملاحظات محدودة، تشير إلى القضية ولا تعالجها، وتغري بها ولا تنخرط فيها، وتفتح الباب إلى موضوعها لكنها لا تلج فيه، عند هذا قام عزم الباحث على التصدّي لدراسة هذا الجانب البارز المميّز في سورة الضحى. ولمّا كان ذلك يستلزم مراجعة مصطلح "النسق" نفسه؛ للتيقّن من مفهومه ومحدداته عند العلماء؛ جرى كثير من البحث والتقصي فيه؛ ففوجئ الباحث أنه

(١) ستكون هذه الإشارات واللفتات لبنات بناء مهمة في هذه الدراسة.

على كثرة دوران هذا المصطلح في كلامهم وفي مؤلفاتهم إلا أنّه لم يحظ بما يستحقه من البحث والتحرير، وتبين أنّ هذا المصطلح الأساسي بحاجة إلى المزيد من التدقيق والتشخيص النظري الواضح، قبل المضيّ إلى دراسته في سورة الضحى؛ لكي تكون الدراسة أكثر وضوحا واكتمالا وقيمة. من هنا انعقد العزم على دراسة هذين الموضوعين المتلازمين؛ معاً، وعلى أنْ تتركب هذه الدراسة من محورين: أولهما؛ نظري، يتناول ــ في إيجاز ــ "النسق" من حيث: مفهومه عند العلماء، وتطبيقاته، ودورانه في مؤلفاتهم، ومن حيث مفهومه المقترح، ومحدداته الأساسية، ثم يُنتقَل فيه إلى عرض ما يلزم عرضه عن مجال الدراسة التطبيقية. وثانيهما؛ تطبيقي؛ يتناول النسق في سورة الضحى – تناولا تحليليّا بيانيّا – من جهة مستوياته ووجوهه، وما يقوم عليه من العلل والمسوغات والعلاقات، وما يكمن فيه من الدقائق واللطائف البيانية، ومن هنا فسيكون عنوان هذه الدراسة هو: (النسق في سورة الضحى .. مستوياته ولطائفه.. دراسة (نظرية / تحليلية) بيانية.

ب ـ أهداف الدراسة

تتمثل أهداف هذه الدارسة بصورة أساسية في العناصر المحّددة الآتية:

[١] تتبع "النسق" من حيث: مفهومه وتطبيقاته ومعالجاته، ودورانه في كتب العلماء.

[٢] تحرير المفهوم الدقيق لهذا المصطلح وبيان محدّداته؛ بناءً على مفهومه عندهم.

[٣] بيان الفرق بين النسق وبين المصطلحات الجزئية والكلية التي يتقاطع معها.

[٤] دراسة النسق في سورة الضحى دراسة تحليلية من حيث: مستوياته ووجوهه وعلاقاته ولطائفه.

[٥] تقديم نموذج للدرس البياني التطبيقي في هذا الجانب المهمّ من جوانب تكوين النص.

[٦] مواصلة السّعي لتحويل المعرفة البيانية العربية النظرية الأصيلة إلى أدوات منهجية تحليلية.

محورا الدراسة

بناء على ما سبق بيانه في فكرة الدراسة، وما تأسس على ذلك من الطبيعة التكاملية (نظريا وتطبيقيا) التي يلزم أن تكون عليها، وما قام على ذلك من تحديد عنوان دقيق؛ يشخّص موضوعها وطبيعتها وأهدافها؛ تأتي هذه الدراسة في المحورين الرئيسين الآتيين:

المحور الأول: مداخل نظرية أساسية

قبل المضي إلى المحور التطبيقي من هذه الدراسة يلزم الوقوف في هذا المحور النظري عند جانبين نظريين أساسيين في تشخيص هذه الدراسة في جانبيها النظري والتطبيقي، وفي تحديد أبعادها،

وفي تكوين تصوّر كلي دقيق صحيح عنها موضوعا ومجالا، ولكونهما يشكلان طريقا لازما إلى تنفيذ هذه الدراسة في جانبها التطبيقي على وجهها الصحيح.

الجانب الأوّل: النَّسْقُ؛ حقيقته ومحدّداته

من العناصر المهمة في تكوين الكلام العربي ــ ابتداء بتكوين الجملة؛ أيّا كان نوعها؛ وانتهاء بالنصّ كله ــ مرورا بتكوين الجمل المتجاورة والمقاطع والموضوعات – تكوينه الخطّيّ التتابعيّ، وترتيبه وتسلسله، وتوالي عناصره وترابطه، وتعلّق تاليه بأوّله وانجراره عليه، وهذا العنصر المهم من عناصر تكوين الكلام هو ما دَرَجَ في كتب العلماء وفي مقولاتهم باسم "النَّسْق"، و"التنسيق"، و"الترتيب"، كما سنرى، والنسْق عنصر تكوين محوريّ أساسيّ رئيس في الكلام [النصّ]، تتفرّع عنه جملة أدوات تكوين النصّ التعاقبية الجزئية التي تربط عناصر جُمَلِه، وتربط جمله ومقاطعه وموضوعاته؛ بعضها إلى بعض، وهذا يعني أنّ "النَّسْق" أحد المفاهيم الكليّة في الكلام؛ يطلق على عنصر كلّي مطّرد ممتدّ في النص من أوّله إلى آخره، على خلاف مصطلحات أخرى من قبيل: "الذكر والحذف، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والالتفات، والقصر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، والتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية، والطباق والمقابلة، وغيرها من المصطلحات التي تطلق

على مفاهيم وأساليب ذات ظهور جزئيْ متقطّع في النصّ؛ يحضر مرّة ويغيب أخرى على تفاوت، ولذلك؛ فإنّ النَّسْق لا يقلّ أهميّة ولا جدارة بالدّرس ــ النظري والتحليل البياني التطبيقي الذي يستقصي تفصيلاته ــ عن سواه من أساليب الكلام مما يدرجه علماء البلاغة في علوم المعاني والبيان والبديع وغيرها من ظواهر الكلام ومن عناصر تكوينه؛ إنْ لم يكن على رأسها؛ لأنّ جملةً غير قليلة من تلك الأساليب والأدوات تشكّل وحدات جزئية يقوم على مجموعها وسواها هذا العنصر الكليّ في النصّ، كما سيتضح خلال هذه الدراسة إن شاء الله. و"النَّسْقُ" في اللغة ــ عموما ــ يعني تتابع الشيء وتوالي أجزائه وانتظامها بعضها في إثر بعض. قال ابن فارس: "نسق: النون والسِّين والقاف أصلٌ صحيح يدلُّ على تتابع في الشَّيْء"(١)، وفي المعجم الوسيط: "ناسَقَ بين الأمرين: تابع بينهما ولاءَم، وانْتَسَقَتِ الأشياءُ: انتظم بعضها إلى بعض"(٢)، ومن هنا؛ يتبيّن أنّ الدلالة على "الترتيب والتتابع والتوالي المنظّم والتئام

(١) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة الرياض للنشر والتوزيع، الرياض، ودار الجيل، بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م ٥: ٤٢٠.

(٢) المعجم الوسيط، أخرجه: إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول ــ تركيا، الطبعة الثانية ٢: ٩١٨.

الأشياء بعضها إلى بعض" مطلقا؛ هي الأصل في دلالة الأصل اللغويّ "نَسْق"، أمّا النصّ على العطف – تحديدا – في عبارة اللسان: "النَّسْقُ، بالتسكين، مصدر: نَسَقْتُ الكلامَ؛ إذا عطفتُ بعضَهُ على بعض"(١)، وفي عبارة المعجم الوسيط: "نَسَقَ – الكلامَ – عَطَفَ بعضه على بعض"(٢)؛ فليس معناه أنّ العطف في الكلام بحروف العطف هو وحده الشيء الذي يطلق عليه مصطلح النَّسْق؛ بل يؤكد مفهوم النسق المذكور؛ لأنّ عطف الكلام يعني إتباع بعضه بعضا(٣)، والعطف بـ "حروف النَّسَق" هو من أظهر أدوات نَسْق الكلام وتواليه وإتباع بعضه بعضا؛ لذلك سموه نسْقا؛ وسمّوا حروفه حروف "النّسَق". وقد وقف بعض العلماء عند عنصر تتابع المعاني وترتيبها في الكلام وتلاحمها، وعند العلاقات والمسوغات التي يقوم عليها هذا الترتيب، وعند بعض أنواع تلك العلاقات وصورها ونماذجها، دون أن يسمّوا ذلك نسقاً، منهم أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) الذي عقد في كتابه فقه اللغة وسرّ العربية فصلا سماه:

---

(١) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، مادة "نسق"، ١٠: ٣٥٣، وانظر: المعجم الوسيط، مادة "نسق" ٢: ٩١٨.

(٢) المعجم الوسيط، ٢: ٩١٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه ٢: ٦٠٨.

(في تقديم المؤخر، وتأخير المقدّم)، قال فيه: "العرب تبتدئ بذكر الشيء والمقدّم غيره، كما قال ﷻ: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[1]، وكما قال تعالى: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾[2]، وكما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ﴾[3]، وكما قال حسان بن ثابت في ذكر بني هاشم:

بهاليل؛ منهم جعفر وابنُ أمّه عليٌّ ومنهم أحمدُ المتخيَّرُ"[4].

فهذا الباب الذي عقده الثعالبي يقوم على فكرة أنّ لترتيب المعاني في كلام العرب وتواليها أصولا وعلاقات يُجرى عليها، ولكنه قد يُخرَج في الكلام عمّا تقتضيه هذه الأصول والعلاقات؛ فيقدّم الذي حقه التأخير، ويؤخر الذي حقّه التقديم؛ كما في تقديم السّجُود على الركوع، وتقديم الكافر على المؤمن، وتقديم الإناث على الذكور في هذه الآيات، وتقديم جعفر وعليّ على أحمد (محمد) ﷺ في البيت.

---

(١) سورة آل عمران. الآية ٤٣.

(٢) سورة التغابن. الآية ٢.

(٣) سورة الشورى. الآية ٤٢.

(٤) فقه اللغة وسرّ العربية، أبو منصور الثعالبي، اعتنى به: خالد فهمي، تصدير: د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي ــ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م، ٢: ٥٥٩، وانظر البيت في: شرح ديوان حسان بن ثابت، عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، د.ط. ص ٢٣٧.

وهذه الفكرة وشواهدها تقع في صلب فكرة نسق المعاني وترتيبها وتواليها في الكلام؛ وإنْ لم يُسمِّ الثعالبي ذلك نسقا ولا ترتيبا، والذي يهمنا من هذا أنّ الثعالبي قد تنبّه ونبّه إلى فكرة ترتيب المعاني وتواليها في الكلام، ولفت النظر ضمنا إلى أنّ لذلك أصولا يجرى عليها. كذلك وقف عند ترتيب المعاني في الكلام وتواليها وعند أنواع العلاقات والروابط والمسوغات البيانية التي يقوم عليها هذا الترتيب والتوالي الزركشي (ت٧٩٤هـ) في مبحث: المناسبات بين الآيات في كتابه البرهان(١)، وفي مبحث: التقديم والتأخير في المعاني في الكتاب نفسه(٢)؛ لكن دون أن يسمّي ذلك نسقا. كذلك أشار الرازيّ (ت٦٠٤ أو٦٠٦هـ) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(٣) إلى ترتيب المعاني في الكلام إشارة بالغة الوضوح؛ وإنْ لم يسمّ ذلك نسقاً، واعتبره موضعا من المواضع التي يأتي من جهتها قدر كبير من مزايا الكلام، إذ قال: "اعلم أنّ الأمانة عبارة عمّا إذا وجب لغيرك عليك حق فأدّيتَ ذلك الحق إليه؛ فهذا هو الأمانة، والحكم بالحق عبارة عمّا إذا وجب لإنسان على غيره حقّ؛ فأمرتَ

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ ــ ١٩٧٢م ١: ٤٠ ــ ٥٠.

(٢) انظر: المصدر نفسه ٣: ٢٣٨ ــ ٢٨٣.

(٣) سورة النساء. الآية ٥٨.

من وجب عليه ذلك الحق بأن يدفعه إلى من له ذلك الحق، ولمّا كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضارّ، ثم يشتغل بغيره، لا جرم أنه تعالى ذكر الأمرَ بالأمانة أوّلا، ثم بعده ذكر الأمرَ بالحكم بالحقّ، فما أحسن هذا الترتيب، لأنّ أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"(١)، ففي هذا النصّ أشار الرازي إلى تقديم ذكر "أداء الأمانة" في الآية على ذكر "الحكم بالعدل"، وبيّن السرّ البياني اللطيف في هذا التقديم، وسمى ذلك "ترتيبا"، ووصفه بالحسن، ثم بيّن كون أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط، وهذه الوقفة نفيسة جدا في هذا الموضع الذي نحن فيه، فما "الترتيبات" في الكلام شيءٌ سوى النسق الكلّي العامّ فيه، وما الروابط شيءٌ سوى العلاقات والمسوغات والعلل البيانية التي يقوم عليها نسق الكلام وترتيبه وتواليه، وما الحكم على الترتيب في الآية الكريمة "بالحسن" ــ وهو كذلك ــ إلا دليل على دور النسق في تقرير درجة جودة الكلام وعلوّه وجماله، وما الحكم بكون "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط" إلا برهان على أهميّة النسق، وعلى كونه عنصرا رئيسا من عناصر تكوين الكلام، وعلى كونه موضعا أساسيا من المواضع التي تأتي من جهتها مزايا الكلام ولطائفه وفضائله وجمالياته؛ إن لم يكن في

(١) التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن التميمي الرازي، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، الطبعة الثالثة ٢٠١٥م ١٠: ١٢٥ ــ ١٢٦.

الأهمية في صدر تلك المواضع، وإذا كان الرازي قد أشار ــ في التفسير الكبير ــ إلى هذا العنصر التكويني الكلّي المهم من عناصر الكلام، وسماه ترتيبا، وأشار إلى أهميته في القرآن، دون أن يسميه نسقا؛ فلقد أوشك ــ في كتابه: نهاية الإيجاز ــ أن يطلق مصطلح "النّسْق" ذاته على ترتيب الكلام وتتابعه عندما جعل ما سمّاه "تنسيق الصفات" وجهاً من وجوه النظم، ومثّل لذلك بأمثلة هي داخلة في صميم أمثلة نسق المعاني، إذا قال وهو يتحدث عن وجوه نظم الكلام وتعلق بعضه ببعض: "الوجه الحادي عشر: تنسيق الصفات، كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾[3]"[4]، فمن البين الجلي أن مصطلح "تنسيق" في هذا الموضع؛ قريب جدا من مصطلح "النسق" إن لم يكن يعنيه هو ذاته،

---

(١) سورة الحشر. من الآية ٢٣.

(٢) سورة الأحزاب. الآيتان ٤٥ ــ ٤٦.

(٣) سورة القلم. الآيات ١٠ ــ ١٣.

(٤) نهاية الإيجاز في دراية الأعجاز، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن التميمي الرازي، تحقيق: د. بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٥م ص ٢٩١.

والنماذج التي استشهد بها على هذا الوجه من وجوه النظم تدل دلالة صريحة على أنّ ما سمّاه بـــ (تنسيق الصفات) هــو ذاتــه نســق المعاني، وما (الصفات) التي هذه صورة نسقها إلا نمط واحــد مــن أنماط المعاني التي يتم نسقها في الكلام. وتبع الرازي فــي صــنيعه هذا ابن النقيب في مقدمة تفسيره؛ إذ عقد بابا أسماه (تنسيق الصفات بغير حرف نسق)، ساق عليه شواهد من طراز الشواهد التي ســاقها الرازيّ(١). فهذه نماذج من وقفات العلماء الذين وقفوا عنــد فكــرة ترتيب المعاني وتواليها في الكلام، وذكروا بعض نماذجها، وما يقوم عليه ذلك الترتيب من العلل والعلاقات؛ دون أن يصــرّحوا بتســمية ذلك نسقا(٢)، وبالمقابل نجد علماء آخرين استخدموا مصطلح "النَّسْق" في كلامهم صراحة لمجرّد الدلالة به على ترتيب الكــلام وتتابعــه وتواليه، ودرج هذا المصطلح في مؤلفاتهم بهذا المعنى، لكن دون أن يُعْنوا بتحريره أو يخصّوه بباب خاصّ، أو يفصّلوا القول فيه على أية

---

(١) انظر: مقدمة تفسير ابن النقيب، محمد بن سليمان البَلْخي المقدسي الحنفي الشَّهير بابن النَّقِيب، المطبوع خطأ بعنوان: الفوائد المشوّق إلــى علــوم القرآن وعلم البيان؛ لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن أيّوب الزرعــي المعروف بــ [ابن قيم الجوزية]، كشف عنها وعلّــق علــى حواشــيها: الدكتور/ زكريا سعيد علي. مكتبة الخانجي، القــاهرة، الطبعــة الأولــى ١٤١٥هــ ــ ١٩٩٥م ص ٣٩٥ــ ٣٩٦.

(٢) باستثناء استخــدام الرازي لمصطلح (التنســيق) القريــب جــدا مــن مصطلح (النسق).

صورة، ومن هؤلاء العلماء الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ أو٤٧٤هـ)، ومن العبارات التي استخدم فيها هذا المصطلح قوله يجادل في شأن بيان الجهة التي يختصّ منها الشعر بقائله: "فإنْ قلتَ: إنّ الراويَ وإنْ كان قد نطق بألفاظ الشعر على الهيئة والصورة التي نطق بها الشاعر، فإنّه لم يبتدئ فيها النسق والترتيب، وإنّما ذلك شيء ابتدأه الشاعر، فلذلك جعلتُهُ القائلَ له دون الرّاوي...."(١)، فاستخدم الشيخ ـ صراحة ـ مصطلحي "النسق والترتيب" للدلالة بهما على توالي الألفاظ وتتابعها المنظم في البيت الشعري، وهذا هو مفهوم النسق بذاته. ومنهم أيضا الخطيب القزويني؛ فإنه قد استخدم هذا المصطلح بهذا المعنى في مواضع عديدة من كتاب الإيضاح(٢). لكنّ هناك علماء آخرين عُنُوا بمصطلح "النسق" بمفهومه الدال على ترتيب الكلام وتواليه، وميّزوه عن سواه من المفاهيم، ووقفوا عنده وقوفا صريحا متأنّيا؛ في سياق الكلام عمّا سمّوه "صحة النسق"

---

(١) دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، تعليق: أبو فهر/ محمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، الناشر: مطبعة المدني بمصر، ودار المدني ـ جدة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ص ٣٦٣، وانظر أيضا ص٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٢، ٤٧٣ـ ٤٧٤.

(٢) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، طبعة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م، ص ١٠٠، ١٦٣.

و"حسن النسق". وممن عُني بالنسق في الكلام من جهة صحته خاصة؛ وخصّه بشيء من العرض والتحليل ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)، إذ عدّه سرّا من أسرار فصاحة الكلام وشرطا من شروط بلاغته من جهة صحة معانيه. قال في شأن صحة المعنى التي هي عنده شرط من شروط فصاحة الكلام وبلاغته: "ومن الصّحة: صحة النسق والنظم(١)، وهو أن يستمرّ في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقاً بالأوّل وغير منقطع عنه"(٢)، ثم انتقل ــ بعد ذكر هذا الشرط وبعد تعريفه صحة النسق ــ مباشرة إلى الكلام عن التخلص ــ في الشعر ــ من موضوع إلى موضوع إذ قال: "ومن هذا الباب (أي: صحة النسق) خروج الشعراء من النسيب إلى المدح"(٣)، فأنت ترى ابن سنان في هاتين العبارتين قد استخدم مصطلحي "النسق والنظم" مترادفين؛ بمعنى توالي الكلام وانتظامه وتتابعه بعضه في إثر بعض؛ سواء على مستوى المعنى الواحد أو على مستوى الخروج من معنى إلى معنى، والمقصود بالمعنى الواحد هنا الموضوع

(١) يلاحظ أن ابن سنان قد جعل النسق في هذه العبارة مرادفا للنظم، وهذا فهم لمصطلح النظم يختلف عن فهم الشيخ عبد القاهر.

(٢) سر الفصاحة، أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، طبعة ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م ص ٢٦٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٨.

الواحد، لأنه ذكر الخروج من النسيب إلى المدح، والنسيب موضوع، والمدح موضوع آخر، وقوله في عبارته الأولى: "أن يستمرّ في المعنى الواحد" إشارة موجزة إلى نسق الكلام وترتيبه وتلاحمه وتواليه على مستوى الموضوع الواحد، وإلى أنّ من صحة المعنى ألّا يُدْخِلَ المتكلم في الموضوع الذي هو فيه ما ليس منه، لأنّ ذلك ينافي حسن تتابع الكلام وترتيبه وتواليه، وفي قوله: "وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلّص إليه حتى يكون متعلقاً بالأوّل وغير منقطع عنه" إشارة إلى نسق الموضوعات ــ تحديدا ــ وتتابعها في الكلام بعضها بعد الآخر، وإلى الأداة التي تقوم بها العلاقة بين الموضوع والذي يليه، وهي ما سمّاه العلماء بـ (التخلّص) أو (الخروج) تحديدا، وقوله: "ومن هذا الباب خروج الشعراء من النسيب إلى المدح" يتضمن أنّ النسق باب واسع قائم برأسه، وأنّ التخلص إنّما هو شيء من هذا الباب، وصورة واحدة من صوره، ومظهر من مظاهره، وأداة من أدواته، ثم انتقل ابن سنان بعد هاتين العبارتين مباشرة إلى الكلام عن إجادة المحدثين ــ في نظره ــ لهذه الصورة من نسق الموضوعات تحديدا وربط بعضها ببعض؛ وإلى كون طريقتهم فيها تختلف عن طريقة القدماء؛ إذ قال في كلام متصل بالكلام السابق: "إنّ المحدثين أجادوا التخلّص حتى صار كلامهم في النسيب متعلقاً بكلامهم في المدح لا ينقطع عنه، فأمّا العرب المتقدمون فلم يكونوا يسلكون هذه الطريقة، وإنّما

كان أكثر خروجهم من النسيب إمّا منقطعاً، وإمّا مبنيّاً على وصف الإبل التي ساروا إلى الممدوح عليها"[١]، وأورد في الكلام عن التخلّص مجموعة من نماذجه[٢]. ومن الملاحظ أنّ ابن سنان انشغل في كلامه عن النسق بما يتعلق بالتخلّص؛ خاصّة، ومن ثمّ اقتصر في الشواهد التي استشهد بها على صحة النسق على نماذج من التخلّص من موضوع إلى موضوع؛ مع أنّ التخلص من موضوع إلى موضوع إنّما هو مظهر جزئي من مظاهر النسق الكلّي العام في الكلام، ومعقد واحد ــ فحسب ــ من معاقده. وكان ابن أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ) أوضح عبارة، وأوسع تصوّرا لمفهوم النسق، وأقرب إلى تشخيص هذا المصطلح، وأدقّ تحليلا من ابن سنان، ففي كلّ من تحرير التحبير وبديع القرآن عقد بابا سمّاه "حسن النسق"، وذكر أنّه من محاسن الكلام[٣]، وعرّفه بأنه: "عبارة عن أن يأتي المتكلّم بالكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحما

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٨.

(٢) انظر: المصدر نفسه ٢٦٨ ــ ٢٧٠.

(٣) انظر: تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، جمهورية مصر العربية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، القاهرة ١٣٨٣هـ ص ٤٢٥.

سليما مستحسنا لا معيبا ولا مستهجنا"[1]. فعبارة "متتاليات" في هذا التعريف الذي قدّمه ابن أبي الإصبع لحسن النسق إشارة إلى كون النسق الذي يصفه بالحسن يتعلق بتوالي الكلمات والجمل في النثر وفي الشعر وتتابعها وترتيبها مطلقا بلا قيود، وعبارة "متلاحمات تلاحما سليما" إشارة إلى الروابط والعلاقات والعلل والمسوغات البيانية التي يقوم عليها النسق ذاته، وهذا يشير إلى فهم ضمنيّ أعمّ للنسق نفسه ولعلاقاته، وأكثر سعة وتطوّرا من مفهومه عند ابن سنان، ويُفهم من هذا التعريف أنّ التخلّص الذي اقتصر ابن سنان على ذكره ليس إلا أداة واحدة من الأدوات التي يتحقق بها نسق النصّ وترتيب معانيه وتتابعها حسب مفهومه عند ابن أبي الإصبع، وهذا المفهوم الواسع الذي قدّمه ابن أبي الإصبع للنسق يتجلى واضحا في شواهده وتطبيقاته وتحليلاته، فممّا ضربه شاهدا على حسن النسق قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2]، أورد الآية الكريمة، ثم قال: "فأنت ترى إتيان هذه الجمل معطوفا بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة؛ لأنه ــ سبحانه ــ بدأ بالأهمّ إذ كان المراد

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٢٥، وانظر: بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط. ص ١٦٤.

(٢) سورة هود. الآية ٤٤.

إطلاق أهل السفينة من سجنها، ولا يتهيأ ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض؛ فأمرها بالابتلاع، ثم علم ــ سبحانه ــ أنّ الأرض إذا ابتلعتْ ما عليها من الماء ولم تقطع مادة الماء تأذّى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها، وربّما كان ما ينزل من السماء مخلِفا لما تبتلعه الأرضُ، فلا يحصل الانحسار، فأمر سبحانه السّماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالابتلاع، ثمّ أخبر بغيض الماء عندما ذهب ما على الأرض وانقطعت مادّة السماء، وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين المتقدمتين، ثم قال: "وقضي الأمر"، أي: هَلَك من قُدِّر هلاكهُ، ونجا من قُضِيَتْ نجاته، وهذا كنه الآية، وحقيقة المعجزة، ولا بدّ أن تكون معلومة لأهل السفينة، ولا يمكن عِلْمُهُم بها إلا بعد خروجهم منها، وخروجهم منها موقوف على ما تقدّم، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل، وكذلك استواء السفينة على الجوديّ، أي: استقرارها على المكان الذي استقرّت فيه استقرارا لا حركة معه، لتبقى آثارها آية لمن يأتي بعد أهلها، وذلك يقتضي أن يكون بعد ما ذكرنا، وقوله سبحانه: "وقيل بعدا للقوم الظالمين" هذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظَنُّ أنّ الهلاك ربّما شمل من لا يستحقّ، فدعا ــ سبحانه ــ على الهالكين، ووصفهم بالظلم احتراسا من هذا الاحتمال، وذلك يقتضي أن تكون بعد كلّ ما تقدّم"(١)، ثم عقّب على ذلك قائلا: "فانظر إلى حسن هذا النسق،

(١) تحرير التحبير ص ٤٢٥ ــ ٤٢٦، وانظر: بديع القرآن ص ١٦٤ــ ١٦٥.

وكيف وقع القول فيه وِفْقَ الفعل سواء"[١]، وقال في بديع القرآن عن النسق في هذه الآية الكريمة: "فانظر حُسْن هذا النسق، وصحّة هذا الترتيب في الجمل المعطوف بعضها على بعض لتعلم قدر هذا النظم"[٢]. فسمّى ابنُ أبي الإصبع تتابعَ المعاني والجمل في الآية وترتيبها وانجرار بعضها إثر بعض "نَسَقاً" وترتيبا، ثم حلل هذا النسق، وبيّن علله ومسوغاته، وكشف عن أسراره ولطائفه ودقائقه، ونفذ ــ خلال ذلك ــ إلى ما هو أبعد؛ فكشف ضمنا عن الأساس العميق الذي يقوم عليه نسق الآية، حين أشار إلى وقوع نسق الكلام وترتّبه فيها على ترتيب الأفعال والأحداث وتواليها ــ كما ينبغي أن تحدث ــ في الواقع الخارجي، ووصف النسق في الآية الذي هو ترتيب المعاني وتتابع الجمل فيها وتواليها بعضها في إثر بعض بالحسن وبالصحة، ثم إنه جعل النسق أوسع مدىً من التخلص عندما قال: "ومن شواهد هذا الباب الشعرية قول زهير (طويل):

ومن يعص أطراف الزجاج فإنّه يطيع العوالي رُكِّبَتْ كُلّ لَهْذَمِ

فإنه نسق على هذا البيت اثني عشر بيتا، كلّ بيت معطوف على ما قبله بالواو عطف تلاحم من غير تضمين"[٣]، كما أدخل فيه نسق

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٢٦، وانظر: بديع القرآن ص ١٦٤ ــ ١٦٥.

(٢) بديع القرآن ص ١٦٥.

(٣) تحرير التحبير ص ٤٢٧، وانظر البيت في: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعه: أبو العباس ثعلب، اعتنى به: د. حنّا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م ص ٥٠.

تالي المعاني على أوّلها عندما استشهد بقول "ابن شرف القيرواني (بسيط):

جاور عليا ولا تحفل بحادثة إذا ادّرعتَ فلا تسأل عن الأسل
سل عنه، وانطق به، وانظر إليه تجد ملءَ المسامع والأفواه والمُقَلِ"[1]

ثم قال: "فالحظ حسن النسق؛ وصحة هذا الترتيب فيه، واستيعاب هذا التقسيم، ووضوح هذا التفسير"[2]، فجعل تقسيم المعنى وترتيب أقسامه في صدر البيت الثاني ثم تقسيم الأجوبة الثلاثة وترتيبها على تلك الأقسام، ومجيء البيت الثاني مفسِّرا للبيت الأوّل أشياء من نسق الكلام. وابن أبي الإصبع ــ وإن ركّز في شواهده وتحليلاته على النسق بأداة العطف "الواو"؛ إلا أنّ التعريف الذي قدمه للنسق جاء مطلقا، غير مقصور على الواو، وإنّما خصّ "الواو" بالذكر لأنها أداة نسق الجمل في الآية التي استشهد بها، وكذلك في جمل البيت الثاني من الشاهد الأخير، ولأنها أداة نسق أبيات زهير الاثني عشر التي أشار إليها، ووسيلة ربط البيت التالي منها بالذي سبقه، ولو أنّ ابن

(١) المصدر نفسه ص ٤٢٧، ولم أعثر على نسخة موثوقة من الديوان، والبيتان في: خزانة الأدب ونهاية الأرب، تقيّ الدين أبو بكر علي بن عبدالله المعروف بابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، دار الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ٢: ٣٨٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢٧.

أبي الإصبع كان بصدد تحليل حسن النسق في سورة الفاتحة ــ مثلا ــ أو في آية الكرسيّ أو في سورة الناس؛ لرأيناه يثني على نسقها، ويذكر علاقات وأدوات تحقق بها نسق المعاني فيها غير العطف بـ"الواو"، ولو لم نقلْ بهذا المعنى، وادّعينا أنّ النّسْق وحُسْنَه ــ في فهم ابن أبي الإصبع أو غيره من العلماء ــ مقصور على ما جاء بحروف النسق (الواو والفاء وثمّ...)؛ لانطوت دعوانا على فساد كبير، لأنها تتضمن الادّعاء على ابن أبي الإصبع أنّه لا يرى في هذه النماذج الثلاثة المذكورة ــ وأمثالها مما لم يقم فيه نسق الكلام على حروف النسق ــ نسقا ولا ترتيبا؛ فضلا عن أن يصفها بحسن النسق وصحته.

ومن الملاحظ أنّ صنيع ابن أبي الإصبع في شأن هذا الباب الذي سماه "حسن النسق" قد فتح الباب لعلماء آخرين جاؤوا بعده؛ فسلكوا في تسمية هذا الباب مسلكه، ومنهم ابن النقيب (ت ٦٩٨هـ) الذي عقد بابا في مقدمة تفسيره سماه (حسن النسق)[١]، وابن الأثير الحلبي (ت٧٣٧هـ) الذي عقد بابا في كتابه جوهر الكنز سماه "حسن النسق"[٢]، وابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ) إذ عقد بابا في

(١) انظر: مقدمة تفسير ابن النقيب ص ٣٩٧ ــ ٣٩٩.

(٢) انظر: جوهر الكنز، نجم الدين بن إسماعيل بن الأثير الحلبي، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، ص ٢٩٧.

كتابه خزانة الأدب ونهاية الأرب سماه "حسن النسق"(١)، والسيوطي (ت٩١١هـ) الذي عقد بابا في كتابه معترك الأقران في إعجاز القرآن سماه كذلك "حسن النسق"(٢)، ولم يكتف هؤلاء العلماء بترسّم خطا ابن أبي الإصبع في عقد هذا الباب في مؤلفاتهم، وفي تسميته؛ بل شاركوه فهم هذا المصطلح، ونقلوا تعريفه دون تغيير يُذكر، وساقوا أكثر شواهده، ونقل بعضهم شرحه كما هو، لذلك نشير هنا إلى صنيعهم، ولا نقف عنده؛ لأنّه لا إضافة فيه على ما سبقهم إليه ابن أبي الإصبع. وأختم هذا العرض المكثّف لمفهوم النسق، ولما حظي به من لفتات العلماء واستخداماتهم وإشاراتهم ووقفاتهم ومعالجاتهم بمقطع أورده الخطيب القزويني في باب الوصل والفصل من كتابه الإيضاح؛ ذكر فيه حاجة صاحب علم المعاني إلى التنبّه لأنواع الجامع بين المعاني، وما تنعقد به الأسباب بين الأشياء في الواقع، ومن ثم في الكلام، ثم أورد مثالا من القرآن بيّن به هذا المعنى، إذ قال: "ولصاحب علم المعاني فضل احتياجٍ إلى التنبّه لأنواع الجامع، لا سيما الخيالي؛ فإنّ جمعه على مجرى الإلف والعادة بحسب ما تنعقد الأسباب في ذلك، كالجمع بين الإبل والسماء والجبال والأرض في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ

---

(١) انظر: خزانة الأدب ونهاية الأرب ٢: ٣٨٨.

(٢) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر السيوطي، ضبط: أحمد شمس الدين، دار الكتب العملية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١: ٣٠٧.

﴿ ۱۷ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۱۸ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۱۹ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾[1] بالنسبة إلى أهل الوَبَر؛ فإنّ جُلّ انتفاعهم في معاشهم من الإبل؛ فتكون عنايتهم مصروفة إليها، وانتفاعهم منها لا يحصل إلا بأنْ ترعى وتشرب، وذلك بنزول المطر؛ فيكثر تقلّب وجوههم في السماء، ثم لا بدّ لهم من مأوى يؤويهم، وحصن يتحصّنون به، ولا شيء لهم في ذلك كالجبال، ثم لا غنى لهم لتعذّر طول مكثهم في منزلٍ عن التنقّل من أرضٍ إلى سواها؛ فإذا فتّش البدويّ في خياله وجد صور هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور، بخلاف الحَضَريّ، فإذا تَلا قبل الوقوف على ما ذكرنا ظنّ النَّسْقَ لجهله معيبا"[2]. وهذا المقطع نفيس جدا في هذا الموضع، لصدوره عن أحد علماء البلاغة المتأخرين (ت٧٣٩هـ)؛ بما يدلّ عليه ذلك من نضج مصطلح "النسق"، واحتكام مفهومه واستقراره عند العلماء، ومن دراية دقيقة به، وبتجلياته في الكلام؛ إلى درجة أنْ وظّفه تطبيقيّا في الكشف عن ترتيب المعاني في هذه الآيات، وفي بيان علاقات تكوينها وأسرارها، ثم هو نفيس كذلك لوضوح دلالته على مفهوم مصطلح "النسق" ذاته عند العلماء وعلى دلالته البيانية عندهم، وعلى جانب من طبيعته ومن أدواته في الكلام. لقد كان الخطيب ــ في هذا المقطع ــ يتحدث ــ في باب الوصل والفصل ــ عن الجوامع التي تجمع بين أجزاء الكلام، وعن الأسباب والعلاقات

(١) سورة الغاشية. الآيات ١٧ ــ ٢٠.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ص ١٦٢ ــ ١٦٣.

التي يقوم عليها ترابط المعاني وترتيبها وتواليها في الكلام، وهذا كله يتعلق بالنسق الذي هو ترتيب الكلام وتتابعه وتواليه بعضه في إثر بعض، لا بأي شيء آخر، ثم استشهد بهذه الآيات من سورة الغاشية، وهي من أكثر المواضع التي يشير عندها علماء التفسير إلى ترتيب المعاني ونسقها وتواليها(١)، ثم بيّن العلاقات والأسباب الواقعية الخارجية التي جمعت بين "الإبل والسماء والجبال والأرض" في

(١) انظر: الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، اعتنى به: محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٢م ٤: ٧٤٧، والتفسير الكبير ٣١: ١٥٧، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنّا، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م ٨: ٣٧٦٥، ونظم الدرر، أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، اعتنى به: عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م ٨: ٤١٠ ــ ٤١١، وروح المعاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، ضبط: علي عبدالباري عطية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م ١٥: ٣٢٩، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي، مطبعة الحلبي، القاهرة، الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م ٣٠: ١٣٧، والتحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م ٣٠: ٢٧٠ ــ ٢٧١.

تصوّر البَدَويّ خاصة، وكشف عن المسوّغات والعلل البيانية التي قام عليها تصوّر هذه الأشياء وحضورها على هذا الترتيب في خياله، ومن ثمّ قام عليها نسق الآيات وترتيبها وتواليها في المصحف، وهذا كله يقع في إطار مفهوم النسق والترتيب وأدواته وعلله ومسوغاته وعلاقاته، وأخيرا؛ بيّن أنه إذا تَلا الحَضَريُّ هذه الآيات قبل معرفة علاقة "الترتيب" القائمة بين هذه الأشياء في الواقع الخارجي ظنّ أنّ "نسق" الآيات معيبا، فسمّى ــ تسميةً صريحةً ــ مجيء المعاني في الآيات على هذه الصورة من التوالي والتتابع (ترتيبا، ونَسقا)، وبذلك كان هذا المقطع بالغ الوضوح في الدلالة على مفهوم النسق عند العلماء، وكان هذا المثال واضح الدلالة على مفهوم النسق ذاته، وعلى وجهٍ من وجوه تحققه في الكلام. فهذا هو معنى "النسق" في اللغة، ومفهومه العام عند العلماء، وهذه جملة من إشاراتهم المباشرة وغير المباشرة إلى هذا المصطلح، وصور من استخداماتهم له في مؤلفاتهم، وتلك نماذج من وقفاتهم عند مصطلح (النسق) وحسنه؛ تداولا وتبويبا وتنظيرا واستشهادا وتحليلا. ونخلص من مُجمل هذا العرض الموجز إلى ستة أمور أساسية:

الأوّل: موضع اهتمام العلماء من النسق

يستنتج من هذا العرض الموجز أنّ العلماء الذين اهتموا بالنسق وعقدوا له في مؤلفاتهم أبوابا؛ لم يجعلوا كلامهم في هذا الباب في مفهوم (النسق) ذاته؛ وإنّما انصرفت عنايتهم إلى (حسن النسق)، والنسق شيءٌ، وحسنه شيء آخر، فالنسق أصل، والحسن صفة في

ذلك الأصل، والنسق عنصر تكوين ثابت في الكلام هو ما تسعى هذه الدراسة إلى تحريره نظريا وتطبيقيا، أمّا الحسن في النسق فقد يكون وقد لا يكون، وكان حريّا أن ينصرف الاهتمام إلى (النسق) نفسه، ثم يدرس بعد ذلك حسنه أو قبحه، كما هو الحال في دراسة سائر أساليب التكوين المعروفة في أبواب البلاغة، ومع أن ابن أبي الإصبع ومن أتوا بعده قد انصرفوا في هذا الباب إلى البحث في الفرع وتركوا الأصل، واهتموا بالصفة وتركوا الموصوف؛ إذ بحثوا في حسن النسق دون البحث في النسق نفسه؛ إلا أنه يبقى لبحثهم قيمة كبيرة في تحديد مفهوم النسق وفي جلاء حقيقته وعلاقاته ولطائفه، ولهذا سيعاد في هذه الدراسة تعريف النسق بناء على فهمهم، ومعالجته تطبيقيا بالاستناد إلى ما هو متاح من معالجاتهم وطرائقهم.

الثاني: النسق مفهوم كلّي

وتبيّن كذلك من خلال ما سبق أنّ النَّسْق مفهوم كليّ، يطلق على تكوين الكلام الواحد ــ جملا ومعاني ومقاطع وموضوعات ــ وترتيبه وتواليه من أوّله إلى آخره؛ أيّا كانت صورة ذلك الترتيب والتوالي، والنسق بهذه الصفة أعمّ من الأساليب التي تتعلق بتكوين الكلام خطيّا وتتابعه بعضه إثر بعض؛ كالتقديم والتأخير في الجملة، والفصل والوصل في المعاني، والتخلّص في الموضوعات، وسواها

من الأساليب التي ستتم الإشارة إليها في العنصر (الرابع) الآتي؛ وذلك لأنّ هذه الأساليب جزئية؛ يتعلق كلّ منها ــ فحسب ــ بالعلاقة بين العنصر والعنصر الذي يليه من عناصر تكوين الجملة الواحدة، أو بالعلاقة بين الجملة والتي تجاورها، أو الموضوع والذي يليه، كما أنّ النّسْق أعمّ مما عقده أهل النحو في الباب الذي أسموه (عطف النَّسق) ــ بفتح السين وتسكينها(١)، وعرفه ابن هشام بقوله: "هو تابع يتوسّط بينه وبين متبوعه أحد الأحرف الآتي ذكرها"(٢)، وذكر: الواو والفاء وثم وحتى وأو وأم وبل ولكن ولا وليس(٣)، فجعل النَّسقَ بمعنى إتباع المعطوف عليه المعطوفَ ــ تحديدا ــ بأحد هذه الأحرف. ومن ثم؛ فإنّ النسق مفهوم كلّي ممتد على مدى الكلام الواحد (النصّ)، وما تلك الأساليب والأبواب الجزئية ــ التي يظهر كل منها في النسق الكلي مرّة ويختفي أخرى ــ إلا أدوات للنَّسْق، وفروع عليه، وتجليات من تجلياته الجزئية.

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة (نسق) ١٠: ٣٥٣، والمعجم الوسيط، مادة (نسق) ٢: ٩١٨.

(٢) أوضح المسالك، أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله الأنصاري المصري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت ــ لبنان، الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩، ٣: ٣٥٣.

(٣) انظر: المصدر نفسه ٣: ٣٥٣ ــ ٣٥٥.

الثالث: مفهوم النسق

وتبيّن أنّ النسق ــ عند علماء البلاغة ــ مصلح يطلق؛ عموما؛ للدلالة به على نَسْق الألفاظ والجمل والمعاني والمقاطع والموضوعات من بداية الكلام المتصل إلى نهايته، وترتيبها، وتواليها، وتتابعها بعضها في إثر بعض، وانجرارها في الكلام، والخروج فيه من الشيء إلى الشيء الذي يليه، ومجيء كل منها في مكانه من الكلام الذي هو فيه، وعلاقة كلّ منها بما سبقه وبما يأتي بعده، وتبيّن كذلك أنّ هذا النسق والترتيب والتوالي لا يأتي عفوا كيفما اتفق، وإنّما هو قائم على مسوغات وعلل وعلاقات بيانية عميقة بين أجزاء الكلام، تقتضي ذلك النسق والترتيب والتوالي وتسوّغه، وتبيّن أيضا؛ أنّ نسق الكلام على تلك العلاقات والمسوغات والعلل يثمر عن لطائف وأسرار ودقائق بيانية يحسن بها الكلام، ويزداد بها إحكامه، ويعلو بها جودة وبيانا.

الرابع: مستويات النسق في الكلام وعلاقاته

من خلال التدقيق في النسق بهذا المفهوم؛ وفي تطبيقات العلماء التي عرض آنفا بعض نماذجها، وفي ما يمكن أن يدخل تحت هذا المفهوم مما أثمر عنه الدرس البياني العربيّ الأصيل؛ يتجلى أنه يمكن التمييز بين مستويات أساسية ــ متكاملة ــ في نسق الكلام؛ أبرزها:

أ ــ **النسق النحوي**، الذي يعني نسق عناصر تكوين الجملة؛ أيّا كان نوعها؛ بسيطة كانت أو مركبة أو متلازمة، وهذا المستوى من النسق يقوم على العلاقات النحويّة مما يتعلق منها ــ خاصة ــ بترتيب العناصر وتواليها وتتابعها داخل الجملة الواحدة، وهذا مستوى في النسق قائم برأسه.

ب ــ **النسق المعنوي**، الذي يعني نسق المعاني في الكلام؛ بأنماطه المتنوعة(١)، وبوجوهه المختلفة(٢)؛ على حسب ما هو قائم في كل نصّ على حدة. ومن الأساليب الجزئية التي تتعلق بنسق المعاني وترتيبها وتواليها في الكلام، وتتمثل فيها علاقات ذلك النسق والترتيب والتوالي ومسوغاته وعلله ما صنفه علماء البلاغة منها في أبواب: الوصل والفصل، والتضاد، والتقابل، والالتفات في المعنى وفي الضمائر، واللف والنشر، والتعديد، وتنسيق الصفات، والمُوَجَّه، والتقسيم، والجمع والتفريق، والمزاوجة، والتعليل، والتفسير، ومراعاة النظير، والمذهب الكلامي، والتمّام، والتوشيح، والإيغال، والاحتراس، والترديد، والتعطّف، والتفويف، والتسهيم، والترشيح،

---

(١) راجع في: دلائل الإعجاز ص ٩٣ــ ٩٨؛ كلام الشيخ عبد القاهر في شأن الأنماط التي يأتي عليها تأليف المعاني وارتباط بعضها ببعض، وهذا جانب وثيق الصلة بطبيعة نسق المعاني وترتيبها في الكلام، وسماته.

(٢) كما سيتضح في وجوه نسق معاني سورة الضحى.

والتوشيع، والاعتراض، والاستطراد[١]. وبعضُ ما ذكره علماء فقه اللغة من قبيل: التكرار[٢]، والإشباع والتأكيد[٣]، والجواب[٤]، وتقديم المؤخر وتأخير المقدم[٥]، وذكر الخاصّ بعد العام، وذكر العام بعد الخاصّ[٦]. وما ذكره علماء الإعجاز البلاغي من أنواع ارتباطات المعاني بعضها ببعض؛ من قبيل: الترتيب بحسب الإلف والعادة في التصور الذهني، وإلحاق النظير بالنظير[٧]، ومن التقديم والتأخير فيها بحسب: السبق في الزمن، أو في الوجود، أو في الإحساس، والأفضلية، والشرف، وتقديم المكان على الزمان، والترتيب حسب العدد والعلة والسبب والرتبة والاستدعاء والتعظيم والغلبة والكثرة والاقتضاء والعناية والاهتمام، والتنقل من الأقرب إلى الأبعد والعكس، ومن الأعلى إلى الأدنى والعكس، ومن الأفراد إلى الجميع، والترقّي، والتقديم للتحذير من المقدّم، والتخويف منه، والتعجّب من

(١) انظر هذه الأبواب في: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، وتحرير التحبير، وبديع القرآن، والإيضاح في علوم البلاغة، وغيرها.

(٢) انظر: الصاحبي ١٥٨، وفقه اللغة وسرّ العربية ٢: ٦٤٩.

(٣) انظر: المصدر نفسه ص ٢١٠، وفقه اللغة وسرّ العربية ٢: ٦٥٨.

(٤) انظر: المصدر نفسه ١٨٢.

(٥) انظر: فقه اللغة وسر العربية ٢ : ٥٥٩.

(٦) انظر: المصدر نفسه ٢: ٥٦٤.

(٧) انظر مثلا: البرهان في علوم القرآن ١: ٤٠ ــ ٥٠.

شأنه، وكونه أدلّ على القدرة، وقصد تخفيف اللفظ، ورعاية الفواصل[1]. فسائر هذه الأساليب ــ وإنْ لم يربط العلماء بينها وبين النسق على نحو صريح ــ هي في حقيقتها صور في جملة نسق المعاني في الكلام، وأنماط أسلوبية جزئية فيه؛ تتمثّل فيها العلاقات بين معاني الكلام، وتكمن فيها العلل والمسوغات البيانية التي بسببها تجتمع تلك المعاني في الكلام وتتآلف وتترتب وتتوالى ــ على صور مخصوصة ــ بعضها بعد الآخر.

ج ــ **النسق الموضوعي**، الذي يعني نسق الموضوعات المستقلّة وتواليها وتسلسلها في الكلام ــ المركّب من موضوعات مختلفة ــ من أوّله إلى آخره، ومن أبرز ما عقده العلماء من الأبواب المتعلقة بعلاقات النسق على هذا المستوى باب التخلّص (الخروج) من موضوع إلى موضوع، كالتخلّص ــ في الشعر العربي القديم ــ من ذكر الأطلال إلى ذكر الرحلة، أو من الغزل إلى المدح أو الهجاء، أو من وصف الرحلة إلى المدح، وكذلك باب الاستطراد من موضوع إلى آخر.

الخامس: الفرق بين النسق والمناسبة

إذا كان الأمر في مفهوم النسق، وفي شأن امتداده ومستوياته ووجوهه وعلاقاته على هذه الصفات؛ فإنّ سائر ما يتعلق بفكرة

---

(١) انظر: المصدر نفسه ٣: ٢٣٩ ــ ٢٧٥.

(نسق الجمل والمعاني والمقاطع والموضوعات في الكلام الواحد [النصّ] وترتيبها وتواليها وتتابعها، وما يقوم عليه ذلك النسق من الأدوات والعلاقات، وما يتحقق به من اللطائف والأسرار والدقائق) مما ورد في علم المناسبة، وفي المؤلفات التي عنيت في بعض أبوابها بترتيب الكلام؛ ولا سيما في مجال علوم البلاغة والنقد والإعجاز وفقه اللغة وعلوم القرآن؛ هو داخل بصورة مباشرة في مفهوم النسق هذا الذي نحن فيه، والنسق بهذا المفهوم يلتقي مع علم المناسبة في هذا الجانب، ثم يفترق عنه في ما يختصّ به علم المناسبة خارج نسق الكلام الواحد وترتيبه وتوالي عناصره، كتناسب السور، وكالتناسبات اللفظية والأسلوبية والتصويرية التي لا تدخل في مفهوم النسق، ويفترق معه أيضا في ما يختصّ به النسق مما لا يدخل في علم المناسبة، وفي ذلك النسق النحويّ، والمقطعي والموضوعي.

السادس: الفرق بين النسق والنظم

ويتبيّن ــ أخيرا ــ مما تقدّم أنّ النسق بهذا المفهوم الخاصّ يختلف عن النظم على الصورة التي انتهى إليها عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني، من حيث أنّ النسق عنصر جزئيّ خاصّ من عناصر النظم؛ يتعلّق بترتيب الألفاظ والجمل والمقاطع والموضوعات وبترتيب المعاني التي تقوم عليها تلك الألفاظ والجمل والمقاطع والموضوعات، وبتواليها الخطّي بعضها في إثر بعض من

أوّل الكلام إلى آخره، ومسوغات ذلك النسق وعلله وعلاقاته البيانية، وما ينطوي في ذلك الترتيب والتوالي الخطي خاصة وما يتحقق من جهته للكلام من أسرار ولطائف وخفايا وجماليات بيانية، أمّا النظم فهو مفهوم كلّي يشمل النسق وغيره من أساليب تكوين الكلام، وقد عرّفه الشيخ عبد القاهر بقوله: "اعلم أنّ ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجتْ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخلّ بشيء منها"(١)، ثم ذكر التصرّف في الكلام وفي عناصر الجملة وفي صيغها وتراكيبها وتأليفها في الخبر والإنشاء بالكناية والمجاز والتشبيه والتمثيل، وبالتقديم والتأخير، والاسمية والفعلية، والتقسيم، والمزواجة، والتعريف والتنكير، والذكر والحذف، والخبر، والموصولية، والحالية، والفصل والوصل، وبعض الحروف مثل: إنّ وحروف العطف، والحروف المشتركة المعاني كحروف النفي، والقصر، وسوى ذلك من أساليب الكلام وأبوابه، وذكر أنّ الناظم لا يبتغي بنظمه غير أن ينظر في وجوه مثل هذه الأبواب وفروقها، ويتصرّف فيها فيصيب بكلّ من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له(٢)، وبهذا يتضح الفرق بين المفهومين، فنسق الكلام وترتيب أجزائه وتواليها هو في حقيقته جانب جزئي من جوانب النظم بالمفهوم الذي استقرّ به عند الشيخ،

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٨١.

(٢) انظر: المصدر نفسه ص ٨١ ــ ٨٢.

أمّا النظم فهو مفهوم شامل يدخل فيه سائر تلك الأساليب؛ نسقية أو غير نسقية، والدارس البياني عندما يدرس النسق في الكلام؛ فإنه إنما يدرس ترتيب أجزاء الكلام وتواليها وتسلسلها، في مستوياته المختلفة، وما يقوم عليه ذلك النسق والترتيب من مسوّغات وعلل وعلاقات بيانية، وما يكمن فيه من أسرار ولطائف ودقائق، أمّا عندما يدرس النظم في النصّ؛ فإنه يدرس سائر أساليب تكوين الكلام وأدواته وفنونه، مما صنّفه العلماء تحت علوم المعاني والبيان والبديع، وسواها مما لم يصنفوه من أساليب ومن صيغ تكوينه الصرفية والنحوية والمعنوية والصوتية، خبرا وإنشاء، حقيقة ومجازا، سواء على مستوى الجملة الواحدة أو الجمل المتجاورة أو الموضوعات المتوالية، وما ينطوي في تلك الأساليب والظواهر من اللطائف والخفايا والأسرار البيانية. وإذا قد تجلى ــ من خلال هذا العرض الموجز ــ مفهوم النسق في اللغة، ومفهومه الاصطلاحي عند أبرز من درسوه من العلماء في مؤلفاتهم، والمعنى الذي درج به في كلامهم، ومفهومه المقترح هنا؛ القائم على ذلك كله، وعلى ما يمكن استنباطه من شواهدهم التي جعلوها أمثلة للدلالة بها على حقيقة النسق، ومن تحليلاتهم لتلك الشواهد، وعلى المعنى الذي دار به هذا المصطلح في كلامهم، وتجلت ــ كذلك ــ طبيعة النسق الكلية تأسيسا على ذلك المفهوم، ومستوياته وما يدخل في مجمل صوره الجزئية وعلاقاته وعلله ومسوّغاته البيانية مما عقده العلماء في أبواب البلاغة وفقه اللغة والإعجاز البياني، والفرق بينه وبين أساليب الكلام الجزئية الأخرى، وعلاقته ببعض تلك الأساليب،

والتقاؤه وافتراقه مع المناسبة، والفرق بينه وبين النظم بمفهومه الكلي الذي انتهى إليه عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني؛ فإنّ هذا العنصر التكويني الكليّ قائم ــ كما أسلفت ــ في كلّ نص، أيّا كان نوعه، ثم هو قائم في سورة الضحى تحديدا، متجلّ فيها أوضح ما يكون وأجلاه، متمثّل فيها من أولها إلى آخرها ــ على مستويات ووجوه مختلفة ــ تمثّلا لافتا مميّزا، في أحكم ما يكون النسق وأجوده وأدقّه، ومن هنا فسيكون النسق في سورة الضحى ـــ بمستوياته ووجوهه المختلفة، وبأدواته الجزئية ومسوغاته وعلاقاته البيانية ــ هو موضوع الجانب التطبيقي من هذه الدراسة البيانية، ومجال عملها، وهو المحور الثاني الآتي الذي ستدور حوله؛ للكشف عنه، وبيانه، وإظهار ما ينطوي عليه من الأسرار والخفايا واللطائف البيانية.

الجانب الثاني ـ مجال الدراسة

موضوع الدراسة هو النسق بجانبيه النظري والتطبيقي، وقد وقفنا في الجزء الأول من هذا المحور وقفة بالغة التركيز عند الجانب النظري لهذا الموضوع، بيّنا فيه دورانه عند العلماء، وصورا من احتفائهم به، ومن تطبيقاته لديهم، ومفهومه ومحدداته، وبقي فيه جانبه التطبيقي، وستكون سورة الضحى مجال هذه الدراسة، من جهة نسقها وترتيب أجزاء الكلام فيها، وتواليها في السورة من بدايتها إلى نهايتها، وما يقوم عليه ذلك النسق والترتيب من المسوغات والعلل والعلاقات البيانية، وما يكمن فيه من الأسرار

والدقائق واللطائف البيانية، وقبل المضيّ إلى المحور التالي؛ تحسن الإشارة السريعة إلى ثلاثة أمور تتعلق بالسورة الكريمة:

الأوّل: نصّ السورة:

وهو: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾[1].

الثاني: بيانات السورة الأساسية

قال ابن عاشور: "سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كثير من كتب التفسير وفي جامع الترمذي سورة الضحى؛ بدون واو، وسميت في كثير من التفاسير وفي صحيح البخاري سورة والضحى؛ بإثبات الواو، ولمّا يبلغنا عن الصحابة خبر صحيح في

(١) مما تلزم الإشارة إليه هنا أن هذه الدراسة لن تتطرق إلى عبارة (البسملة) في السورة الكريمة، للخلاف الكبير بين العلماء في كونها جزءا من كل سورة كما أنزلت السورة أم لا، ولذلك لا يمكن البتّ في شأن علاقتها بنسق نحو السورة ومعانيها، والبسملة في حدّ ذاتها تستحق دراسة بيانية مستقلّة؛ تتناولها في ضوء ذلك الخلاف، وفي ضوء وجودها في رأس كل سورة باستثناء سورة التوبة، وعلاقتها بتلك السور، وسرّ وجودها فيها.

تسميتها"[1]، والفرق بين التسميتين أنّ من سماها بالأولى فقد سمّاها بـ ﴿الضُّحَىٰ﴾ الذي هو الزمن المعلوم، ومن سماها بالثانية؛ فقد سماها بعبارة القسم نفسه ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ الذي استهلت به السورة، قيل: هي مكيّة لا خلاف في ذلك[2]، وعدد آياتها إحدى عشرة آية[3]،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٧.

(٢) انظر: الكشاف ٤: ٧٦٩، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، القاضي أبو محمد عبد الحقّ بن غالب ابن عطيّة الأندلسي. تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م. ٥ : ٤٩٣، والتفسير الكبير ٣١: ٢٠٢، والتسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جُزَي الغرناطي، اعتنى به: د. عبدالله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت ـ لبنان، د،ط. ٢: ٤٩، والبحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلس، تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي وآخران، دار الرسالة العالمية، دمشق ـ سوريا، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م ٢١: ٣٩٣، والبحر المديد، أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، تحقيق: عمر أحمد الراوي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، طبعة ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م ٨: ٣١٦، وفتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الدار العالمية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م ٤: ٣٢٠١، وروح المعاني ١٥: ٣٧٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٧.

(٣) انظر: المصدر نفسه ٤: ٧٦٩، والتفسير الكبير ٣١: ٢٠٢، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٩٠، والبحر المديد ٨: ٣١٦، وفتح القدير ٤: ٣٢٠١،

نزلت بعد سورة الفجر بمكة[١]، والمشهور عند العلماء أنها الحادية عشرة في ترتيب نزول السور[٢]، وهي أولى سور قصار المفصل[٣].

الثالث: أسباب النزول

ذكر العلماء في أسباب نزولها وُجوها عديدة، لكن أكثرهم يكادون يتفقون على ترجيح أنّ سبب نزولها أنّ الوحي قد احتبس للمرة الثانية في أوائله، وأبطأ جبريل عن النبيّ ﷺ لمدّة اختُلف في طولها[٤] بين أربعة أيام، واثني عشر يوما، وخمسة عشر يوما، وخمسة وعشرين يوما، وأربعين يوما[٥]؛ حتى قال المشركون: "إن

=وروح المعاني ١٥: ٣٧٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٨، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٩٠.

(١) انظر: المصدر نفسه ٤: ٧٦٩، والتفسير الكبير ٣١: ٢٠٢، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٩٠، وفتح القدير، ٤: ٣٢٠١، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٠: ٣٤٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٠: ٣٤٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه ٣٠: ٣٠: ٣٤٨.

(٤) انظر: المحرر الوجيز ٥: ٤٩٣.

(٥) انظر: معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء، تحقيق: د. عماد الدين بن سيد آل الدرويش، عالم الكتب، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ ــ ٢٠١١م ٢ : ٩٩١، وإعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، أبو عبدالله الحسن بن أحمد (ابن خالويه)، مؤسسة الإيمان،=

محمدا ودّعه ربُّه وقلاه"[1]، أو قلاه التابع الذي يكون معه[2]، وحتى شقّ ذلك على رسول الله ﷺ وأهمه[3]، فأنزل الله جلّ وعزّ:

=بيروت، لبنان، د. ط. ص١١٧، والتفسير الكبير ٣١: ٢٠٧، وروح المعاني ١٥: ٣٧٦، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٧.

(١) انظر: المصدر نفسه ٢: ٩٩١، والنكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، مراجعة: السيد عبدالمقصود بن عبدالرحيم، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٣٣هـ ــ ٢٠١٢م ٦: ٢٩٢، والكشاف ٤: ٧٦٩، والتفسير الكبير ٣١: ٢٠٧، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٩٠، وتفسير القرآن العظيم، ٨: ٣٧٩٩، ٣٨٠٠، ونظم الدرر، ٨: ٤٥٣، ٤٥٥، والبحر المديد ٨: ٣١٦، وفتح القدير ٤: ٣٢٠١، وروح المعاني ١٥: ٣٧٦، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٧، ٣٤٩.

(٢) انظر: المصدر نفسه ٢: ٩٩١، والنكت والعيون ٦: ٢٩٢، والكشاف ٤: ٧٧٠، والمحرر الوجيز ٥: ٤٩٣، والتفسير الكبير ٣١: ٢٠٧، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٩٠، والبحر المحيط ٢١: ٣٩٤، وتفسير القرآن العظيم ٨: ٣٧٩٩، وفتح القدير ٤: ٣٢٠١، وروح المعاني ١٥: ٣٧٦، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٧.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٥: ٤٩٣، والبحر المحيط ٢١: ٣٩٤.

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[1]، تكذيبا لهم، وتبشيرا لمحمد ﷺ بالكرامة الحاصلة[2].

المحور الثاني: مستويات النَّسْق ولطائفه في سورة الضحى

نوقش في المحور النظري السابق مفهوم "النسق" وتطبيقاته عند العلماء، والمفهوم المقترح له في ضوء فهم العلماء وإشاراتهم وتطبيقاتهم، وعرضت بعض محددات هذا المفهوم، وأشير إلى مجال هذه الدراسة، وعرض نصّ السورة وبياناتها الأساسية وأسباب نزولها، وكل ما مرّ إنّما هو مداخل نظرية أساسيّة كان لا بدّ من تحريرها قبل الانتقال إلى المحور التطبيقي الذي هو موضع ثقل هذه الدراسة، ولبّها، وما كان المحور السابق إلا مدخلا ضروريا إليه، وأساسا يُنطلَق منه إلى موضوع الدراسة الرئيس، وهو ما سيستهلّ الحديث فيه حالا.

---

(١) انظر: معاني القرآن ٢: ٩٩١، والكشاف ٤: ٧٦٩ــ ٧٧٠، والمحرر الوجيز ٥: ٤٩٣، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٩٠، وتفسير القرآن العظيم ٨: ٣٧٩٩، ونظم الدرر ٨: ٤٥٣، والبحر المديد ٨: ٣١٦، وفتح القدير ٤: ٣٢٠١، وروح المعاني ١٥: ٣٧٦، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٧.

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٩٠، ونظم الدرر ٨: ٤٥٥، والبحر المديد ٨: ٣١٦.

إنّ المدقق في هذه السورة الكريمة من جهة بعدها الجمالي البياني يقع فيها على كثير من معالم الأداء البياني القرآني الرفيع؛ سواء على مستوى محتواها الدلالي القريب والبعيد وما يرتبط به في السياقين النصي والخارجي، أو على مستوى أساليب البيان وأدوات التكوين فيها وعناصره، ومن المواضع الأساسية التي تكمن فيها هذه المزايا والمحاسن البيانية في هذه السورة الكريمة نسق عناصر تكوينها وترتيب أجزائها وتواليها من أوّل السورة إلى نهايتها، ومن هنا؛ فستنصرف هذه الدراسة في جانبها التطبيقي إلى تحليل النسق في هذه السورة دون سواه من أساليب تكوين السورة وعناصره، وإلى تتبّعه في مستوياته ووجوهه الأكثر بروزا، والكشف عن طبيعته، وعما يقوم عليه من العلل والمسوغات والعلاقات البيانية العميقة، وعمّا ينطوي عليه من اللطائف والدقائق البيانية، وسيتم تناول تفصيلات نسق السورة على المستويات الآتية:

أولا: النسق على المستوى النحوي

يمثل النظام النحوي في الكلام وما يقوم عليه هذا النظام خاصة؛ من علاقات الترتيب بين عناصر التكوين داخل الكتلة النحوية الواحدة ــ البسيطة أو المركبة أو المتلازمة ــ عنصرا أساسيا من عناصر نسق الكلام وتتابعه وتواليه، وأداة رئيسة من أدوات انجرار الكلام بعضه في إثر بعض، ومقوما أساسيا من مقومات ترابطه

وتلاحم عناصره، وإذا أردتَ التيقن من أهمية النسق النحوي ومن دوره في نسق الكلام وترتيبه ومن علاقته بعلل ذلك النسق والترتيب ومسوغاته ولطائفه البيانية؛ فاعمد إلى أية عبارة عربية عالية البيان، ثم انقض ــ فحسب ــ نسق عناصرها وترتيبها وتواليها؛ ثم انظر فيها بعد ذلك، وإلى ما سيؤول إليه بيانها، ومن هنا؛ فإنّ النسق النحوي بما يحققه للكلام من ترتيب وتتابع وتلاحم يمثل ــ في حدّ ذاته ــ بعدا بالغ الأهمية من الأبعاد التي تأتي من جهتها مزايا الكلام ومحاسنه، ومكمنا من مكامن أسراره ولطائفه وخفاياه، وموضعا من المواضع التي يتحقق من جهتها تفاضل الكلام وتفاوته. وإذا كان الأمر كذلك؛ فما تفصيلات النسق النحوي في سورة الضحى؟، وما المسوغات والعلل والعلاقات البيانية التي يقوم عليها؟، وماذا يكمن في ترتيب الكلام وتواليه وتتابعه النحوي ــ في هذه السورة الكريمة ــ من أسرار ولطائف وخفايا ومحاسن؟. للإجابة على هذه الأسئلة؛ سيتم ــ في هذا المستوى ــ تحليل هذه السورة الكريمة في ضوء ما هو متاح من إعراب العلماء لها؛ تحليلا نحويا تفصيليا كاشفا؛ يتناولها وحدة نحوية إثر وحدة، وآية إثر أخرى؛ للكشف عن حقيقة نسقها النحوي، ومسوغاته وعلله البيانة، والكشف كذلك عما ينطوي عليه هذا النسق والترتيب النحوي من الأسرار واللطائف البيانية:

١ ــ **الآيات الثلاث الأولى**: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

تمثل هذه الآيات الثلاث في مجموعها جملة نحوية قسمية كبرى واحدة، مركبة من جملة القسم الإنشائية ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ في صدر الجملة القسمية، وجملتي الخبرين المنفيين ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ في عجز الجملة القسمية. وأصل تركيب صدر الجملة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ هكذا: (أقسم بالضحى) بذكر فعل القسم المحذوف (أقسم) الذي تُصدّر به الجملة القسمية في الكلام أصلا، وقد حذف في هذا الموضع لغرض بيانيّ غير نَسَقيّ، وعندما يرِد فعل القسم في الكلام؛ فإنه يستلزم ــ وإن كان مقدّرا ــ ذكر حرف (الباء) لتعديته إلى المقسم به، فجاء ــ بعده في النسق ــ حرف الـ ﴿وَ﴾، وهو حرف قسم[1] مبني على الفتح، عُوّض به عن (الباء) بعد حذف فعل القسم، فدُلّ به بالأصالة على حرف القسم، وبالتّبع على فعل القسم المحذوف، وأصبح بمعنى: (أقسم بـ)، ولمّا كانت عبارة ﴿وَ﴾ النائبة ــ من جهة المعنى ــ عن فعل القسم المقدّر وحرفه تستلزم مقسما به جاء ــ بعدها في الترتيب ــ المقسم به الأوّل ﴿الضُّحَىٰ﴾، فأصبحت العبارة على هذه الصورة ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، و﴿الضُّحَىٰ﴾ اسم

(١) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار الإرشاد، حمص ــ سوريا، ودار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م ١٠: ٥٠٩.

مقسم به أوّل، مجرور[1] بـ ﴿وَ﴾ القسم النائبة عن الباء، وعلامة جرّه كسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، و﴿ال﴾ في ﴿الضُّحَىٰ﴾ للجنس[2]، أي جنس الضحى، والجار والمجرور ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ متعلقان بفعل القسم المحذوف[3]، جاءا في الترتيب بعد فعل القسم المقدّر لبيان الشيء الذي أُقسم به، وجملة ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ــ وفيها فعل القسم المحذوف ــ جملة قسم ابتدائية لا محل لها من الإعراب[4]، وجاء ــ بعد ذكر المقسم به الأوّل ــ الصمت ــ في النسق ــ مباشرة بالفاصلة الأولى ﴿ ١﴾ للوقوف على المقسم به الأوّل، فدلّ ذلك على انتهاء المقسم به الأول، وعلى تجرّده من الصفات والقيود، وعلى كون المقسم به الأول موضع عناية واهتمام، وأُضفي على المقسم به الأوّل بهذا الوقف والتريّث في التلاوة وزنٌ إضافي أسهم في زياده تعظيمه، ومن ثم في زيادة قوة جملة القسم الإنشائية، وقبل أن يمرّ السياق القرآني إلى ذكر جواب القسم؛ وُصِل

(١) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

(٢) انظر: روح المعاني ١٥: ٣٧٢.

(٣) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩، والجدول في إعراب القرآن وصرفه، تصنيف: محمود صافي، مراجعة: لينة الحمّصي، دار الرشيد، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٨م ٣١: ٢٩٧.

(٤) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٧.

الكلام بعد الفاصلة بـ ﴿وَ﴾، قال بعضهم: هو (واو) قسم آخر[١]، والصواب أنه حرف عطف[٢] مبنيّ على الفتحة الظاهرة، لا محل له من الإعراب، فدُلّ به في هذا الموضع من النسق على أنّ صدر جملة القسم لم ينته بعد، وعلى أنّ هناك مقسما به ثانيا آتيا، وأفيد به ـ أيضا ـ إدراج المقسم به الثاني الذي سيأتي في صدر الجملة القسمية الكبرى، وأفيد به ـ كذلك ـ نسق المقسم به الثاني على سابقه في الترتيب، وعطفه عليه في الوظيفة، وضمّه إليه في القسم وإشراكه في وقوع فعل القسم عليه، تبع ﴿ وَ﴾ في الترتيب ﴿اللَّيْلِ﴾، وهو المقسم به الثاني، معطوف على ﴿الضُّحَىٰ﴾ مجرور مثله[٣]، وعلامة جرّه الكسرة الظاهرة على آخره، و﴿ال﴾ فيه للجنس[٤]؛ أي جنس الليل، وجيء به في هذا الموضع من نسق جملة القسم الإنشائية لإفادة صدر الجملة القسمية توكيدا للقسم نفسه وتعزيزا له،

---

(١) انظر: النكت والعيون ٦: ٢٩١، وهذا توجيه لا يصحّ؛ لأنّ مما يترتّب عليه إعراب عبارة (والليل إذا سجى) بدل غلط، تعالى الله وجلّ، وتنزه كلامه عن ذلك.

(٢) انظر: مغني اللبيب، أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، طبعة ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م. ص٦٥٢، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

(٣) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

(٤) انظر: روح المعاني ١٥: ٣٧٢.

ولإفادة عجز الجملة القسمية به وبسابقه معاً توكيدا مضاعفا في النفي. تبع المقسمَ به الثاني ﴿إِذَا﴾، وهي ظرف زمان محض للحال مجرّد من الشرط مبني على السكون في محل نصب على الظرفية[١]، متعلق بحال محذوف من الليل تقديره (كائنا)[٢]، وهي مضافة، تلاها في الترتيب الفعل ﴿ سَجَىٰ﴾، وهو فعل ماض مبني على فتحة مقدرة منع من ظهورها التعذّر، والفاعل ضمير مستتر جوازا تقديره هو عائد على ﴿اللَّيْلِ﴾، وجملة ﴿ سَجَىٰ﴾ في محل جرّ مضاف إليه[٣]، وقد جاءت عبارة ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ في هذا الموضع من نسق عبارة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ مضافا إليه ليقيّد بها ﴿اللَّيْلِ﴾ المقسم

---

(١) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٦، والمجتبى، د. أحمد محمد الخرّاط، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م ص ٥٩٦، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٧.

(٢) قيل: (إذا) هنا متعلق بفعل القسم المحذوف، وفي هذا التوجيه نظر؛ لأنه يترتّب على تعليقه بفعل القسم المحذوف أن تكون "إذا" ظرفا لفعل القسم وقيدا في زمن حدوثه، وأميل إلى أنه قيد حاليّ في الليل المقسم به على ما ذكر في إعرابه، انظر هذا القول في: المجتبى ص ٥٩٦، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٣: ٢٩٧.

(٣) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٧، وإعراب القرآن الكريم وبيانه١٠: ٥٠٩.

به على تلك الحال الخاصة تحديدا ــ أي: الليل كائنا وقت سجوّه، ثم جاء الصمت ــ للمرة الثانية ــ بالفاصلة الثانية ۲ للوقف في التلاوة مرة أخرى قبل المرور إلى جواب القسم؛ وذلك لإعطاء جملة القسم هذه ــ مرّة أخرى ــ وزنا وقوّة وتمكنا إضافيا أكثر، ولإعطائها قدرا أكبر من التريّث والهدوء لتحقيق المزيد من التفكّر في المقسم بهما كلٍّ على حِدَة، وصولا إلى ترسيخ حقيقة المقسم عليه، وتثبيت القناعة بتحققه، وبهذا اكتمل نسق صدر جملة القسم على هذه الصورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، وباكتمال نسق صدر جملة القسم على هذه الصورة ــ من النسق النحوي ــ اكتمل الجزء الإنشائي من الجملة القسمية الكبرى، وتمّ المعنى الأصلي المتعلق بالقسم المضاعف بـ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ المقدّم، المراد إيقاعه على المقسم عليه المؤخر ــ الذي سيأتي ــ على أتمّ ما يكون، واكتملت الدقائق والخصوصيات البيانية الإضافية المراد بيانها من خلال نسق عناصر صدر جملة القسم وترتيبها وتواليها ــ على هذا النحو من الترتيب تحديدا ــ على أكمل صورة. ولمّا كان ذِكْرُ جملة القسم (فعلا ــ وإن كان مقدرا ــ وحرفا ومقسما بهما) واكتمالها في الكلام يستدعي ــ من أصل الوضع النحوي للقالب القسميّ ــ استدعاء بيانيا تلقائيا ذكر المقسم عليه؛ كما يستدعي المبتدأُ خبرَه، وكما يستدعي الفعلُ فاعلَه، وكما يستدعي الشرطُ جوابَه؛ ترتّب عليها وتبعها في النسق جواب القسم ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ والمعطوف عليه ﴿مَا قَلَىٰ﴾؛ فبان بهاتين الجملتين جواب القسم،

وبان بهما ــ في الوقت ذاته ــ خبرا (التوديع والقلى) اللذان ادّعى المشركون حصولهما، وبان كونهما منفيين، وبان كون نفيهما مؤكدا بالقسم تأكيدا مضاعفا. وقد بدئ جواب القسم بحرف النفي ﴿مَا﴾ وهو حرف نفي، مبنيّ على السكون لا محلّ له من الإعراب[1]، وجاء في هذا الموضع من النسق لإيقاع النفي به على مضمون الجملة الخبريّة التي تليه كلها ﴿وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، تبعه ــ في الترتيب ــ الفعل ﴿وَدَّعَ﴾ وهو فعل ماضٍ[2] مبني على الفتح الظاهر، وجاء ذكر ﴿وَدَّعَ﴾ خاصة لتحديد الفعل الأوّل المقصود نفيه وزمنه، ولإيقاع النفي عليه، تلاه ﴿كَ﴾ المخاطب، وهو ضمير خطاب متصل ــ المخاطب به محمد ﷺ مبني على الفتح الظاهر في محل نصب مفعول به[3]، استدعاه الفعل الماضي ﴿وَدَّعَ﴾ المنفي المتعدي لمفعول به واحد لبيان من نُفِي وقوع فعل التوديع عليه، تلاه في النسق ﴿رَبُّ﴾ وهو فاعل[4] الفعل المنفي ﴿وَدَّعَ﴾، مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، وهو مضاف، وقد استدعاه الفعل ﴿وَدَّعَ﴾ المنفيّ لبيان من نُفِي وقوع الفعل منه على المفعول به، وقُدِّم

---

(١) قال ابن خالويه: "ما جحدٌ هاهنا". انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ١١٦، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٧.

(٢) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

(٣) انظر: المصدر نفسه ١٠: ٥٠٩.

(٤) انظر: المصدر نفسه ١٠: ٥٠٩.

المفعول به ﴿كَ﴾ المخاطب ــ في النسق والترتيب ــ على الفاعل ﴿رَبُّ﴾ في عبارة ﴿وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ــ مع أنّ الأصل تقديم الفاعل على المفعول به ــ لأنّ المفعول به ضمير متصل بالفعل، والفاعل اسم ظاهر، تبع الفاعلَ ﴿كَ﴾ المخاطب، وهو ضمير خطاب متصل مبنيّ على الفتح في محل جرّ مضاف إليه، وقد جاء في هذا الموضع من النسق النحوي مضافا إليه؛ ليفاد بهذه الإضافة تعريف الفاعل النكرة ﴿رَبُّ﴾ وتحديده، ولمّا حصل تعريف الفاعل النكرة وتحديده بإضافته إلى ضمير المخاطب ﴿كَ﴾ تضمنت هذه الإضافة وهذا الترتيب في تكوين عبارة ﴿رَبُّكَ﴾ بيان أنّ العلاقة بين الطرفين (الله ورسوله) علاقة تضايف وتلاؤم وتقارب، ومن ثم الدلالة على عناية الله تعالى بنبيه ﷺ، واهتمامه به، وتشريفه له، ورفع قدره والتحنّن عليه، وفي ذلك إشارة بيانية بعيدة إلى ما يجب أن يحظى به ﷺ من العناية والاهتمام والقرب والمحبة لدى المؤمنين، ومن اللطيف أنّ هذا التركيب ﴿رَبُّكَ﴾ المشحون بهذه الدلالات اللطيفة، الذي ورد في أوّل السورة في سياق النفي المؤكد لخبري التوديع والقلى قد تكرر ثانية في وسط السورة في سياق إثبات العطاء حتى الرضا في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾، ثم تكرر ثالثة في خاتمة السورة، في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. وبهذا اكتملت جملة الخبر المنفي الأول ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، وهي جملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب[1]، واكتمل باكتمال هذه الجملة المقسم عليه

(١) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ١١٦، والكشاف ٤: ٧٦٩،

الأوّل، وتبيّن كونه منفيا نفيا مؤكدا. ثم وُصِل جواب القسم بحرف العطف ﴿وَ﴾[1]، وجاء هذا الحرف في هذا الموضع من النسق النحوي؛ فدُلَّ به ــ لأول وهلة ــ على أن جواب القسم لم ينته بعد، وأفيد به وصل ما يأتي بعده بجملة جواب القسم، وعطفه[2] عليها معنى وإعرابا، ومن ثم بيان كون ما يأتي جزءا من الجواب الذي جاء القسم لتوكيد نفيه توكيدا مضاعفا. وجاء بعد ﴿وَ﴾ حرف النفي ﴿مَا﴾ في هذا الموضع من نسق الجملة لاستئناف نفي ثانٍ مستقلّ للخبر الثاني، ولإيقاع النفي به على الخبر الثاني ﴿قَلَىٰ﴾، و﴿قَلَىٰ﴾ فعل ماضٍ مبني على فتحة مقدّرة منع من ظهورها التعذّر، وفاعله ضمير مستتر جوازا تقديره هو عائد على ﴿رَبُّ﴾ المذكور في الجملة المنفية السابقة، وجاء الفعل ﴿قَلَىٰ﴾ لتحديد الفعل الثاني المقصود نفيه، ولإيقاع النفي المؤكد بالقسم عليهِ وعلى وقوعهِ من فاعله الضمير المستتر العائد على ﴿رَبُّ﴾ على المفعول به، والأصل أن يتبع الفعلَ والفاعلَ في النسق المفعولُ به الذي يستدعيه الفعل

=ونظم الدرر ٨: ٤٥٣، والبحر المديد ٨: ٣١٦، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٢، وروح المعاني ١٥: ٣٧٤، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٩، والمجتبى ٥٩٦، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٧.

(١) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٩، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٧.

المتعدي ﴿قَلَىٰ﴾ الذي نفيَ وقوعه من الفاعل عليه، وهو (كاف) المخاطب؛ فتكون العبارة هكذا: (وما قلاك)[1]، غير أنه قد حذف من العبارة لأغراض بيانية غير نسقية ذكر العلماء رحمهم الله بعضها[2]. وباكتمال الخبرين المنفيين ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ المؤكد نفيهما ابتداء بالقسم المضاعف اكتمل جواب القسم، وتمّ النسق النحوي في هذه الجملة القسمية الكبرى الذي جاء على هذه الصورة التفصيلية من الترتيب والمسوغات والعلاقات واللطائف البيانية.

٢ ــ **الآية الرابعة:** ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

تتركب هذه الآية الكريمة من جملة اسمية خبرية مثبتة مؤكدة واحدة، وقد سُبقت الجملة بحرف ﴿وَ﴾ وهو حرف عطف[3] مبني على الفتحة الظاهرة، وقد جاء في صدر هذه الجملة بوظيفته النسقية،

---

(١) انظر: معاني القرآن ٢: ٩٩١، والكشاف ٤: ٧٧٠، والتفسير الكبير ٣٢: ٢٠٧، والتبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، اعتنى به: محمد حسين شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م ٢: ٤٦٦، والتسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤٩٠، والبحر المحيط ٢١: ٣٩٤، والبحر المديد ٨: ٣١٦، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٢، وروح المعاني ١٥: ٣٨٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٠.

(٢) انظر؛ مثلا: معاني القرآن ٢: ٩٩١، والبحر المديد ٨: ٣١٦، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٢، وروح المعاني ١٥: ٣٧٥.

(٣) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

لنسق الجملة التي تليه ﴿لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ على ما قبلها، وربطها به ربط عطف، واختُلف في الذي عُطِفَت عليه هذه الجملة، فقيل: هي واقعة في جواب قسم آخر محذوف(١)، وقيل: هي معطوفة على جواب القسم المتقدّم، أي: على جملة ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾(٢)، وقيل: هي ابتدائية مستأنفة(٣)، لا محل لها من الإعراب، معطوفة بواو الاستئناف على جملة القسم ﴿وَالضُّحَىٰ﴾(٤) من باب عطف القصة على القصة، وهذا التوجيه الأخير هو الراجح. وقد استهلّت جملة ﴿لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ بحرف ﴿لَ﴾(٥)، قيل فيها: هي

(١) انظر: فتح القدير ٤: ٣٢٠٢، والمجتبى ص ٥٩٦.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م٢٠: ٣٨٥، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٨.

(٣) انظر: مغني اللبيب، ص ٤٤٠، و روح المعاني ١٥: ٣٧٨، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

(٥) في تحديد نوع اللام في (للآخرة، ولسوف) خلاف، انظر صورته في: روح المعاني: ١٥: ٣٧٨ ــ ٣٧٩.

حرف ابتداء وتوكيد وكّدَت مضمون الجملة[١]، لا (لام) الواقعة في جواب القسم المذكور، وقيل: هي لام الواقعة في جواب القسم المتقدّم[٢]، وجوز بعضهم فيها الوجهين[٣]، وقيل: هي واقعة في جواب قسم محذوف[٤]، والقول الأوّل هو الوجه، وجاء حرف التوكيد في هذا الموضع من ترتيب الجملة للدلالة به على استقلال الجلمة عما سبقها، وعلى معنى الابتداء فيها، وعلى توكيد مضمونها وتحقيقه، ولما كان لـ (لام) الابتداء كل هذه الوظائف البيانية التي تتعلق بالجملة التي تليها كان لها موقع الصدارة من الجملة التي

(١) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٨، وإعراب لامية الشنفرى، أبو البقاء محب الدين عبدالله بن أبي عبدالله الحسين بن أبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، تحقيق: محمد أديب عبدالواحد جمران، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ص ١٠٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٠، ٣٥٢، وأضواء البيان، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الدار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م ٧: ٣١٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

(٢) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٨.

(٣) انظر: البحر المحيط ٢١: ٣٩٥.

(٤) انظر: فتح القدير ٤: ٣٢٠٢، واللباب في علوم الكتاب ٢٠: ٣٨٥، والمجتبى ص ٥٩٦.

تدخل عليها، ولذلك جاءت في نسق الجملة وفي ترتيب عناصرها صدرا؛ لتكون الجملة كلها في سياقها، وليكون دورها البياني منصبا على الجملة كلها لإشرابها تلك الدلالات، مثلها في ذلك مثل القسم، ومثلها هنا مثلها في كل جملة تستهلّ بها، فلما وُطّئ للجملة بحرف العطف ﴿وَ﴾ وبحرف ﴿لَ﴾ للدلالة بهما على تلك المعاني النسقية التي دُلَّ بهما عليها في الجملة الآتية؛ أتبعا بلفظ (الآخرة)، و﴿الْآخِرَةُ﴾ مبتدأ[1] مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره؛ بدئت به الجملة الاسمية المثبتة المراد عطفها وتوكيدها، و﴿الْ﴾ في ﴿الْآخِرَةُ﴾ للجنس[2]، ولفظ ﴿الْآخِرَةُ﴾ يدلّ على مفهوم مفتوح، غير مقيّد بقيد، لذلك تلاه في الترتيب ﴿خَيْرٌ﴾ وهو خبر[3] مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، وذلك للإخبار به، وللحكم به على المبتدأ، وتقييد الانفتاح القائم فيه، وتحديد الصفة المراد الحكم بها عليه، وبيان الجهة التي تأتي منها أفضلية ﴿الْآخِرَةُ﴾، فبان بهذا التركيب ﴿الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ كون المراد بيان أنّ (الآخرة هي خير)، ومع ذلك يبقى المعنى مفتوحا مطلقا إلى حدّ كبير من جهة تلك الخيرية في الخبر، لذلك تبع عبارة ﴿الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ ــ

(١) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥١.

(٣) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

في النسق ــ القيد[1] ﴿لَّكَ﴾ المركب من حرف الجرّ ﴿لَّ﴾ المبني على الفتح، الدالّ هنا على الاختصاص[2]، وضمير المخاطب المتصل ﴿كَ﴾ الواقع في محل جرّ، وعُلّقا معا بالخبر ﴿خَيْرٌ﴾[3]؛ فقيّد بهما الانفتاح الدلالي الموجود فيه، وأزيل بهما ما فيه من الشيوع والغموض، ودُلّ بهما على الاختصاص؛ من جَهةِ لمن تكون هذه الخيريّة، وبان بذكرهما كون هذه الخيرية في الآخرة مختصة اختصاصا إضافيا لا قصريا[4] بمحمد ﷺ؛ لأنه هو (المخاطب) المعنيّ بمعاني هذه السورة، وقد قُدّم ــ في نسق الجملة وترتيب عناصرها ــ الجار والمجرور على حرف التفضيل وعلى المفضل عليه فجاءت العبارة على هذه الصورة ﴿خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، ولم يُقَل: (خير من الأولى لك) لبيان المخصوص بهذه الأفضلية من أوّل وهلة، وبيان مدى ما يحظى به المخاطب من العناية، وبيان كونه موضع الاهتمام والرعاية والتقديم، ثم لجعله ــ في الكلام ــ جار الفاضل والتفضيل ﴿الْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ﴾ وتبيعهما، لا جار المفضول

---

(١) انظر: نظم الدرر ٨: ٤٥٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥١.

(٣) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٨.

(٤) انظر: روح المعاني ١٥: ٣٧٧، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥١.

﴿الْأُولَىٰ﴾ وتبيعه، ثم إنه لمّا كان ﴿خَيْرٌ﴾ اسم تفضيل(١) دلّ على أنّ المبتدأ ﴿الْآخِرَةُ﴾ الذي سبقه فاضل؛ أي: مفضّل، ودلّ على أنّ هناك مفضولا؛ أي: مُفضّلا عليه سيأتي، ثم جاء في النسق النحوي ــ بعد الجار والمجرور المقدّمَين ﴿لَّكَ﴾ ــ ﴿مِنَ﴾ التفضيل، وهو هنا حرف جرّ وتفضيل مبني على سكون مقدّر منع من ظهوره حركة الفتح للتخلص من التقاء الساكنين، وقد جيء به في هذا الموضع من النسق والترتيب النحوي ليُدلّ به على أفضلية ما قبله ﴿الْآخِرَةُ﴾ على ما بعده ﴿الْأُولَىٰ﴾، تبعه ــ في النسق ــ المفضول ﴿الْأُولَىٰ﴾ الذي ختمت به الآية، وهو اسم مجرور بحرف الجرّ ﴿مِنَ﴾، وعلامة جرّه كسرة مقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر لانتهاء اللفظة بالألف المقصورة التي لا تظهر عليها حركات الإعراب، و﴿الْ﴾ فيها للجنس(٢)، والجار والمجرور ﴿مِنَ الْأُولَىٰ﴾ متعلقان باسم التفضيل ﴿خَيْرٌ﴾، فبان بذكره المفضول، واكتمل بذكره أسلوب المفاضلة بين ما هو آتٍ من شأن رسول الله ﷺ المعبّر عنه بـ ﴿الْآخِرَةُ﴾ وما مضى منه المعبّر عنه بـ ﴿الْأُولَىٰ﴾، وبهذا اكتملت الآية ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ على هذه الصورة التفصيلية من

(١) انظر: أضواء البيان ٧: ٣٠٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥١.

النسق النحوي والترتيب والعلل واللطائف البيانية، وبقيت الإشارة إلى جانبين لطيفين في النسق النحوي في هذه الجملة.

الأول: معلوم أنّ الجملة الاسمية تتركب من مبتدأ وخبر، وربما متعلقات وقيود، ومعلوم أنّها تُستهلّ بالمبتدأ وتختم بالخبر، ومعلوم أنّ المبتدأ يستدعي الخبر، وهذا مطّرد في كل جملة اسمية، وقد تبين أنّ عبارة ﴿لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ جملة اسمية، وقد تحقق فيها تلقائيا النسق العادي للجملة الاسمية من جهة تركبها من مبتدأ وخبر ومتعلقين، مثلها في ذلك مثل قولك: (زيد سخيّ بماله) ونحوه، لكن لهذه الجملة وجها آخر إضافيا في النسق والترتيب، وذلك أنه قد سُكبت عناصرها في قالب أسلوب التفضيل المركب ــ على الترتيب ــ من المفضل وهو هنا ﴿الْآخِرَةُ﴾ يليه اسم التفضيل وهو هنا ﴿خَيْرٌ﴾، يليه الجار والمجرور "لام" الاختصاص وضمير المخاطب ﴿لَّكَ﴾، يليه ﴿مِنَ﴾ التفضيلية، يليها المفضل عليه ﴿الْأُولَىٰ﴾، فجاء نسق هذه الجملة مضاعفا، تعاضد فيه نسقان دفعة واحدة، نسق الجملة الاسمية المعتاد؛ مبتدأً وخبراً ومتعلقاتٍ، ونسق أسلوب التفضيل بعناصره المذكورة، وهذا النسق المضاعف المحكم له صور كثيرة في العربية، وهو جانب لطيف من لطائفها، وسرّ بعيد الغور من أسرارها.

الثاني ــ من منطق العربية الدقيق ونظامها المحكم في نسق الجملة أن يأتي قالب أسلوب التفضيل موضوعا ــ أصلا ــ على هذه الصورة من النسق والترتيب والتوالي؛ بتقديم المفضل في

الترتيب؛ لأنه موضع العناية والاهتمام والتقديم لكونه الأفضل الفاضل المقدّم في الصفة، وبتأخير المفضول في الترتيب؛ لكونه مفضلا عليه في الصفة، أقل شأنا وأهمية فيها وأولى بالتأخير، وبتوسط اسم المفاضلة وحرفها بين الطرفين؛ لأنهما بمثابة الميزان الذي يوضع على جانبيه الطرفان (الفاضل والمفضول) للمفاضلة بينهما، ولو نقض هذا الترتيب في العبارة لانفرط إحكامها، ولزال بيانها، ولتلاشت لطائفها، وعندما يُعدَلُ عن هذا الأصل في ترتيب أسلوب التفضيل؛ فلا يكون ذلك إلا لغرض بيانيّ، مع اصطحاب الأصل في أركان المفاضلة.

٣ ــ **الآية الخامسة:** ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

تتركب هذه الآية الكريمة من جملتين خبريتين مثبتتين مؤكدتين، الأولى منهما ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ أصل للثانية ﴿تَرْضَىٰ﴾، وقد سُبقت الجملة الأولى بحرف ﴿وَ﴾[(١)] وهو حرف عطف مبني على الفتحة، جيء به في هذا الموضع من ترتيب عناصر الجملة لعطف الجملة التي بعده؛ منقادا عليها فرعها جملة ﴿تَرْضَىٰ﴾؛ قيل: على جواب القسم[(٢)]، وقيل على جملة القسم الابتدائية ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [(٣)] من باب عطف القصة على

(١) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

(٢) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٨، والمجتبى ٥٩٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

القصة، فهي ابتدائية مثلها، لا محل لها من الإعراب[1]، وهذا هو الأليق بالمعنى، وبسياق الكلام، وقد استهلّت هذه الجملة بجزأيها ــ كسابقتها ــ بـ ﴿لَ﴾، واختلف فيها كذلك[2]، فقيل: هي اللام الواقعة في جواب القسم[3]، وقيل: هي لام التوكيد وكدت ما بعدها[4]، وجوّز بعضهم فيها الوجهين[5]، والصواب أنها لام التوكيد، وعلى ذلك أكثر من أعربها من العلماء، وقد جاء هذا الحرف التوكيدي في ترتيب هذه الجملة وفي نسق عناصرها صدرا، وذلك للدلالة النسقية

---

(١) انظر: المصدر نفسه ٣٠: ٣٥١.

(٢) انظر: فتح القدير ٤: ٣٢٠٣.

(٣) انظر: البحر المحيط ٢١: ٣٩٥، والبحر المديد ٨: ٣١٧، واللباب في علوم الكتاب ٢٠: ٣٨٥، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٣: ٢٩٨، والمجتبى ص٥٩٦.

(٤) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٨، والكشاف ٤: ٧٧٠ ــ ٧٧١، والتفسير الكبير ٣١: ٢١١ ــ ٢١٢، ونظم الدرر ٨: ٤٥٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، ٩: ١٧٠، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٢، وأضواء البيان ٧: ٣٠٩،٣١٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

(٥) انظر: البحر المحيط، ٢١: ٣٩٥، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتَجَب الهَمَذاني، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيّح، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنوّرة ــ السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ــ ٢٠٠٦م ٦: ٤١٨ ــ ٤١٩.

به على معنى الابتداء، إذ تقدير العبارة حسب رأي من قال بابتدائية (اللام): (ولأنت سوف يعطيك ربك)[1]، وللدلالة به على استقلال الجملة التي تليه عمّا سبقها، وللدلالة على توكيد مضمون الجملة التي جعل في ترتيبها صدرا والجزم بتحقيقه. وجاء بعد ﴿لَ﴾ ـــ في الترتيب ـ الحرف ﴿سَوْفَ﴾ وهو حرف استقبال وتنفيس وتوكيد وتثبيت[2]، مبني على الفتح لا محلّ له من الإعراب، ومن لطائف ترتيب هذه الأحرف الثلاثة وتواليها في النسق أنّ ﴿وَ﴾ قد جاءت لربط الجملة كلها بجزأيها، وبسائر عناصرها ـ وفيها حرفا (اللام وسوف) بالجملتين الابتدائيتين اللتين سبقتها، بينما جاءت ﴿لَ﴾ لإيقاع دلالاتها النسقية المذكورة على ما بعدها من الجملة كله، ثم جاءت ﴿سَوْفَ﴾ لإيقاع دلالاتها النسقية على الفعل المضارع خاصة وعلى زمن وقوعه، وكأنّ ترتيب هذه الأحرف الثلاثة في النسق وتواليها قد جاء متدرّجا من العموم إلى الخصوص، ومن السعة إلى الضيق؛ على حسب سعة وظيفة كلٍّ منها في الجملة وعلى مدى اختصاصه، ولذلك لا يسوغ فيها ترتيب آخر، وهذه لطيفة أخرى من لطائف أساليب العربية، وسرّ من الأسرار الكامنة في أبنيتها. فلما انتهى نسق هذه الأحرف الثلاثة على هذا الترتيب؛ لإشراب الجملة بعدها تلك الدلالات على تلك الصفة؛ جاء ـ بعد سوف في النسق والترتيب ـ الفعل ﴿يُعْطِي﴾، وهو فعل مضارع مرفوع وعلامة

---

(١) انظر: الكشاف ٤: ٧٧٠، والتفسير الكبير ٣١: ٢١١ـ ٢١٢.

(٢) انظر: إعراب ثلاثين سورة ص ١١٨، والمغني ١: ١٥٩، ونظم الدرر ٨: ٤٥٦، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥١.

رفعه ضمة مقدرة على الياء، منع من ظهورها الثقل، ولمّا حذفت هذه الضمّة تخفيفا؛ حلّ محلّها السكون، وجاء الفعل في هذا الموضع من ترتيب الجملة ليكتسب من هذا الحرف الذي سبقه في النسق معاني الاستقبال، والتراخي والتنفيس؛ بنقل زمن تحققه من الزمن الحاضر أو القريب إلى الزمن المستقبل الواسع(١)، إضافة إلى تثبيت معناه، وتحقيق وقوعه ــ وتأكيده تأكيدا خاصا إضافيّا غير الذي حصل له ــ ضمن الخبر كله ــ بـ ﴿لَ﴾، وبيان أنه حاصل لا محالة؛ وإنْ تأخر وقت حصوله إلى حين(٢)، وجاء ضمير المخاطب ﴿كَ﴾ متصلا بالفعل ﴿يُعْطِيكَ﴾ لبيان المفعول به الأوّل للفعل ﴿يُعْطِي﴾ الموعود بذلك العطاء، وقد قُدِّم المفعول به ــ في الترتيب ــ على الفاعل للسبب الذي قُدِّم له على الفاعل في عبارة ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، وتبع الفعلَ المضارع ﴿يُعْطِي﴾ والمفعول به ــ في النسق ــ ﴿رَبُّ﴾، وهو فاعل للفعل يعطي مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، لبيان من سيقع فعل العطاء منه، وهو مضاف، تبعه ــ في النسق ــ ضمير المخاطب ﴿كَ﴾ الواقع في محل جرٍّ بإضافته إلى ﴿رَبُّ﴾، فأفيد بنسق هاتين اللفظتين وترتيبهما من خلال هذه الإضافة ما أفيد بترتيبهما في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾(٣)، وحُذف المفعول به الثاني للفعل ﴿يُعْطِي﴾ لأغراض بيانية غير

---

(١) انظر: المغني ١: ١٥٩.

(٢) انظر: الكشاف ٤: ٧٧١، والمغني ١: ١٥٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥١، وراجع إعراب (ربّك) في جواب القسم آنفا.

نسقية[١]، قيل: وجملة ﴿لسَوْف يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ خبر للمبتدأ المحذوف الذي تقديره أنت[٢]، على ما مرّ بيانه. ثم وصلت جملة ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ بحرف ﴿فَ﴾[٣] بجملة ﴿تَرْضَىٰ﴾، وفي حرف ﴿فَ﴾ ــ هنا وفي المواضع الأربعة الآتية ــ معاني العطف والسببية والتعقيب والعلة والجزاء؛ معا، ولا تنافي بين هذه الوظائف[٤]، وهو شبيه بحرف ﴿فَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾[٥]، فعطف به ما بعده على ما قبله، ودُلَّ به على تلازمٍ بين الجملتين، وعندما قال بعضهم في إعراب جملة ﴿تَرْضَىٰ﴾: إنها جملة استئنافية ابتدائية لا محل لها من الإعراب،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥١.

(٢) وصفت د. عائشة عبدالرحمن هذا التقدير بالتعسف، وبمجافاته لروح بيان العربية. انظر: التفسير البياني للقرآن الكريم. د. عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة ص ٤٠ ــ ٤١.

(٣) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٩.

(٤) انظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، اعتنى به: أحمد حسن بسج، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العليمة، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م ص ٧٢، واللباب في علل البناء والإعراب، محب الدين عبدالله بن الحسين البغدادي (أبو البقاء العكبري)، تحقيق: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ ــ ٢٠٠٩م ص٢٧٨ ومغني اللبيب: ١: ١٨٣ ــ ١٨٥، ونظم الدرر ٨: ٤٥٦، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥١.

(٥) سورة عبس. الآية ٤.

معطوفة على جملة ﴿يُعْطِيكَ﴾[1]، فلأنه لمح في ﴿ف﴾ جانب العطف، وعندما قال آخرون: هي تعقيب[2] ؛ فلأنه لمح فيها معاني التعقيب والتسبيب والجزاء. تبع الفاءَ ـ في النسق ـ الفعلُ ﴿تَرْضَىٰ﴾، وهو فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف المقصورة منع من ظهورها التعذر، فاعله ضمير مستتر وجوبا تقديره (أنت) عائد على المخاطب رسول الله ﷺ، ولم يذكر مفعول الفعل؛ فيقال (ترضى كذا) أو متعلقه؛ فيقال: (ترضى بكذا) لأغراض بيانية غير نسقية، وبهذا تنتهي هذه الجملة الكبرى المركبة من جملتين متلازمتين، وتكتمل الآية، ويختم نسقها النحوي الذي جاء على هذه الصورة التفصيلية.

٤ ـ **الآية السادسة**: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾.

تتركب هذه الآية الكريمة من جملتين كبيرتين متلازمتين كذلك، أولاهما: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ إنشائية استفهامية استفهاما تقريريا، والثانية: ﴿فَآوَىٰ﴾ خبرية مثبتة، وقد جاءت الجلمة الأولى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ منفصلة في النسق عن الجلمة التي سبقتها ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾؛ إذ لم توصل بها بحرف من حروف الوصل، لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال؛ فدلّ ذلك على كونها ابتدائية

---

(١) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٨، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

(٢) انظر: نظم الدرر ٨: ٤٥٦، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥١.

مستأنفة[1] استئنافا بيانيا، وقد استهلّت الجملة الأولى من هذه الآية الكريمة بهمزة الاستفهام ﴿أَ﴾، التي جيء بها في نسق الجملة صدرا؛ لأنّ أدوات الاستفهام من الأدوات التي لها الصدارة في ترتيب الجملة، إذ هي مما يوقع معناه على الجملة التي تليه؛ مثله في ذلك مثل بقية الأدوات التي تقع في صدارة الجملة، والهمزة ــ هنا ــ حرف مبنيّ على الفتح الظاهر لا محل له من الإعراب، جاء للاستفهام لفظا وللتقرير معنى[2]، أي: أنها خرجت عن الأصل في الاستفهام الذي هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما في زمن التكلم ــ جلّ العظيم عن ذلك ــ إلى معنى الاستفهام التقريري؛ أي: تقرير المخاطب بما سئل عنه، وجواب المخاطب التقريري هنا: بلى، تبع همزة الاستفهام في النسق ﴿لَمْ﴾ وهو حرف نفي وقلب وجزم[3]، مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، جاء في هذا الموضع

---

(١) انظر: فتح القدير ٤: ٣٢٠٣، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٢، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

(٢) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٩، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٣، وروح المعاني ١٥: ٣٨٠، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٢، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٨.

(٣) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٩، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

من النسق تحديدا لإيقاعه ــ بوظائفه هذه ــ تحت تأثير همزة الاستفهام التقريري، ثم لإيقاع عمله المعنوي والشكلي ــ نفيا وقلبا وجزما ــ على الفعل الذي يليه، تبعه في النسق والترتيب الفعل ﴿يَجِدْ﴾ بمعنى يُلفى، وهو فعل مضارع يستلزم مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر، منفي مقلوب الزمن إلى الماضي مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾[1]، وعلامة جزمه السكون الظاهر، وفيه الفاعل ضمير مستتر[2] جوازا تقديره هو، يعود على ﴿رَبُّ﴾ المذكور سابقا، واتصل بالفعل ﴿كَ﴾ وهو ضمير متصل للمخاطب، مبني على الفتح في محل نصب المفعول به الأوّل للفعل ﴿يَجِدْ﴾ [3]، تلاه في الترتيب المفعول به الثاني للفعل ﴿ يَتِيمًا﴾[4] منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة،

---

(١) انظر: المصدر نفسه ص ١١٩، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

(٢) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

(٣) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٩، والكشاف ٤: ٧٧١، والتفسير الكبير ٣١: ٢١٢، وروح المعاني ١٥: ٣٨٠، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٢، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

(٤) انظر: المصدر نفسه ص ١١٩، والكشاف ٤: ٧٧١، والتفسير الكبير ٣١: ٢١٢، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٣، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد ٦: ٤١٩، وروح المعاني ١٥: ٣٨٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٨، وذهب ابن عاشور= =في (التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٢) إلى أنّ (يتيما،=

وقد جاء نسق الجملة الفعلية ﴿يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ على أصله في الترتيب النحوي: "فعلا، ففاعلا، فمفعولا به أولا، فمفعولا به ثانيا" لأنه لم يطرأ على هذه الجملة ما يستدعي العدول عن هذا الترتيب، وكما هو واضح؛ فإنّ جملة ﴿لَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ هي ــ في أصلها النحوي ــ جملة خبر منفي، غير أنّه دخلت عليها وسبقتها في النسق والترتيب همزة الاستفهام التقريري ﴿أَ﴾ بوظيفتها البيانية تلك فحوّلتها من النفي إلى الإثبات؛ لأنّ (الهمزة) إذا خرجت من الاستفهام الطلبي الحقيقي إلى الإنكار أو التقرير تضمّنت فيها معنى النفي، فإذا دخلت على المنفي ــ وهو هنا ﴿لَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ ــ أثبتته؛ لأنّ نفي النفي وإنكاره إثبات(١)، وهي مثل همزة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(٢)، ويكون معنى العبارة التقريري بعدها (قد وجدك يتيما فآوى)(٣)، لكنه عُدِل عن الإخبار الصريح إلى الاستفهام التقريري لأغراض بيانية لطيفة غير نسقية، وجملة ﴿لَمْ يَجِدْكَ

=وضالا، وعائلا) أحوال، والصواب أنّها مفعولات بها ثواني لتلك الأفعال، لكنها التبست بالأحوال من جهة الهيئة والمعنى لا من جهة الوجه الإعرابي.

(١) انظر: مغني اللبيب ١: ٢٤، ٢٥، والبرهان في علوم القرآن ٢: ٣٣٢ ــ ٣٣٣، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٣، وروح المعاني ١٥: ٣٨٠.

(٢) سورة الشرح. الآية ١.

(٣) انظر: فتح القدير ٤: ٣٢٠٣.

يَتِيمًا﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لا محل لها من الإعراب[1]. تبع هذه الجملة في النسق والترتيب حرف ﴿فَ﴾ بما فيه ــ في هذا الموضع وأمثاله ــ من معاني العطف والتعقيب والترتيب والسببية، والجزاء[2]، تبع ﴿فَ﴾ جملة ﴿آوَىٰ﴾ المركبة من الفعل ﴿آوَىٰ﴾، وهو فعل ماضٍ[3] مبني على فتحة مقدرة منع من ظهورها التعذر، وفاعله الضمير المستتر جوازا المقدر بـ (هو) العائد على ﴿رَبُّ﴾، ومفعوله ضمير المخاطب المقدّر، لأن أصل الكلام (فآواك)[4] فحذف ذلك الضمير لأغراض بيانية غير نسقية، وقد بان بوجود جملة ﴿آوَىٰ﴾ في الموضع الذي هي فيه من نسق الجملة الاستفهامية الكبرى وترتيبها ــ بعد ﴿فَ﴾ كونها ملازمة للجملة التي سبقتها

---

(١) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩.

(٢) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٩، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد ٦: ٤١٩.

(٣) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٩.

(٤) انظر: معاني القرآن ٢: ٩٩١، والكشاف ٤: ٧٧٠، والتفسير الكبير ٣١: ٢٠٧، والتبيان في إعراب القرآن ٢: ٤٦٦، والتسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤٩٠، والبحر المحيط ٢١: ٣٩٤، وروح المعاني ١٥: ٣٨٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤، وأضواء البيان ٧: ٣٠٧، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٧.

ملازمة عطف[1] وسببية وتعقيب وجزاء، ولا تعارض بين هذه الدلالات؛ بل تعاضد وتكامل بياني، وما كانت تلك اللطائف البيانية لتتحقق فيها لو أنّها عطفت على الجملة السابقة بغير ﴿فَ﴾، وإنّما ساغ وحسُن عطف ﴿آوَىٰ﴾ الخبرية على جملة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾؛ التي جاءت في صورة الجملة الإنشائية؛ لأنّ الجملة المعطوف عليها قد اكتسبت من همزة الاستفهام التقريري الإثبات على ما اتضح آنفا. وبهذا تكتمل الجملتان المتلازمتان، ويكمل نسقهما النحوي على هذه الصورة التي تم بيانها.

٥ ــ **الآية السابعة**: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾.

تتركب هذه الآية الكريمة ــ كالآيتين السابقتين ــ من جملتين كبيرتين متلازمتين، أولاهما: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ خبرية مثبتة، والثانية: ﴿هَدَىٰ﴾ خبرية مثبتة أيضا. وقد استهلت هذه الجملة الكبرى المتلازمة بـ ﴿وَ﴾ في ﴿وَوَجَدَكَ﴾، وهو حرف عطف[2]، جيء به في هذا الموضع من نسق الجملة للدلالة على أنّ الكلام لم ينته بعد، وعلى أنّ هناك جملة آتية، وعلى صلة مّا بين الجملة الآتية والجملة السابقة سوغت مجاورتها لها ووصلها بها، وعطفها عليها

---

(١) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩.

(٢) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٩، وروح المعاني ١٥: ٣٨١، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

بهذه الواو، تبع ﴿وَ﴾ ــ في النسق الفعل الماضي[1] المبني على الفتح ﴿وَجَدَ﴾ الذي يستلزم إلى جانب الفاعل ويترتّب عليه مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر، وفيه فاعله الضمير المستتر جوازا الذي تقديره (هو) العائد على ﴿رَبُّ﴾ المتقدم، واتصل بالفعل ضمير المخاطب ﴿كَ﴾ المبني على الفتح في محل نصب المفعول به الأول للفعل ﴿وَجَدَ﴾[2]، تلاه في النسق المفعول به الثاني ﴿ضَالًّا﴾[3]، منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره، وجاء نسق الجملة الفعلية ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا﴾ على أصله في الترتيب النحوي: "فعلا، ففاعلا، فمفعولا به أولا، فمفعولا به ثانيا" للعلة التي ذكرت في جملة ﴿يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾، وجملة ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا﴾، وتابعتها ﴿هَدَىٰ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، مستأنفة مثلها[4]. تبع جملةَ ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا﴾ في نسق الآية وترتيب عناصرها حرف ﴿فَ﴾ بوظائفه البيانية النسقية المذكورة، تبع ﴿فَ﴾ جملةُ ﴿هَدَىٰ﴾ المركبة من الفعل ﴿هَدَىٰ﴾،

---

(١) انظر: المصدر نفسه ص ١١٩.

(٢) انظر: المصدر نفسه ص ١١٩.

(٣) انظر: المصدر نفسه ص١١٩، والكشاف ٤: ٧٧١، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد ٦: ٤١٩، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

(٤) انظر: روح المعاني ١٥: ٣٨١، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩.

وهو فعل ماضٍ مبني على فتحة مقدرة على الألف المقصورة منع من ظهورها التعذّر، وفاعله الضمير المستتر جوازا المقدر بـ (هو) العائد على ﴿رَبُّ﴾ المتقدّم، ومفعوله ضمير المخاطب المقدّر؛ إذ أصل الكلام (فهداك)[1] فحذف الضمير لأغراض بيانية غير نسقية، وقد بان بوجود جملة ﴿هَدَىٰ﴾ في الموضع الذي هي فيه من النسق والترتيب ـ بعد ﴿فَ﴾ ـ كونها ملازمة للجملة التي سبقتها ملازمة عطف[2] وسببية وتعقيب وجزاء، وباكتمال هذه الجملة اكتملت الآية المركبة من هاتين الجملتين الخبريتين المثبتتين المتلازمتين، وتم نسقها النحوي الذي جاء على هذه الصورة التي فرغ من بيانها.

٦ ـ **الآية الثامنة**: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

تتركب هذه الآية ـ أيضا ـ من جملتين كبيرتين متلازمتين، أولاهما: ﴿وَجَدَكَ عَائِلًا﴾ خبرية مثبتة، والثانية: ﴿أَغْنَىٰ﴾ خبرية

---

(١) انظر: معاني القرآن ٢: ٩٩١، والكشاف ٤: ٧٧٠، والتفسير الكبير ٣١: ٢٠٧، والتبيان في إعراب القرآن ٢: ٤٦٦، والتسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤٩٠، والبحر المحيط ٢١: ٣٩٤، وروح المعاني ١٥: ٣٨٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤، وأضواء البيان ٧: ٣٠٧، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٧.

(٢) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩.

مثبتة كذلك، وقد وُصِلت بالجملة السابقة بحرف ﴿وَ﴾[1] في ﴿وَوَجَدَكَ﴾، وهو هنا مثله في صدر الآية السابقة، حرف عطف، جيء به في هذا الموضع من نسق الجملة لعطف الجملة التي تليه على الجملة التي سبقته ووصلها بها، تبع ﴿وَ﴾ ــ في النسق الفعلُ الماضي ﴿وَجَدَ﴾[2]، وفيه فاعله الضمير المستتر (هو) العائد على ﴿رَبُّ﴾ المتقدّم، واتصل بالفعل الضمير المتصل ﴿كَ﴾ المخاطب الواقع في محلّ نصب المفعول به الأول للفعل ﴿وَجَدَ﴾، وتبعه المفعول به الثانِي ﴿عَائِلًا﴾[3]، وجاء نسق عناصر هذه الجملة ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ على أصله، والجملة مستأنفة معطوفة على الجملة التي سبقتها استئنافية مثلها[4]. تبع هذه الجملة حرف ﴿فَ﴾؛ لإيقاعه بوظائفه النسقية على الجملة التي بعده ﴿أَغْنَىٰ﴾ كإيقاعه في الآيات الثلاث السابقة على جمل ﴿تَرْضَىٰ﴾ و﴿آوَىٰ﴾ و﴿هَدَىٰ﴾، وللدلالة به هنا على ما دُلّ به عليه هناك، تبع ﴿فَ﴾ جملةُ ﴿أَغْنَىٰ﴾ المركبة من الفعل الماضي ﴿أَغْنَىٰ﴾ المبني على فتحة مقدرة على الألف

---

(١) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن ص ١٢٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠.

(٢) انظر: المصدر نفسه ١١٩، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩.

(٣) انظر: المصدر نفسه ص ١٢٠، والكشاف ٤: ٧٧١، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد ٦: ٤١٩،

(٤) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩.

المقصورة منع من ظهورها التعذر، وفاعله الضمير المستتر جوازا (هو) العائد على ﴿رَبُّ﴾ المتقدّم، ومفعوله ضمير المخاطب المقدّر؛ إذ أصل الكلام (فأغناك)[1] فحذف ذلك الضمير لأغراض بيانية غير نسقية، وقد جيء بجملة ﴿أَغْنَىٰ﴾ في هذا الموضع من النسق والترتيب ــ بعد ﴿فَ﴾ ــ فدّل بذلك على تلازمها مع الجملة التي عطفت عليها تلازم عطف وتعقيب وسببية وعلّة وجزاء.

٧ ــ **الآية التاسعة**: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

يؤوّل علماء النحو والتفسير (أمّا) في هذا الموضع بعبارة شرطية كاملة؛ هي: (مهما يكن من شيء)[2]، وإذا أُخذ بهذا التأويل؛ فإنّ الآية الكريمة تتركب من جملة شرطية كبرى؛ مركبة من شرط وجوابه، تقديرها: (مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم)، وعلى أيّ حال؛ فقد استهلت هذه الجملة بحرف ﴿فَ﴾ في عبارة ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ﴾، و﴿فَ﴾ هنا حرف مبني على الفتح، وفي نوع هذه الـ ﴿فَ﴾

---

(١) انظر: معاني القرآن ٢: ٩٩١، والكشاف ٤: ٧٧٠، والتفسير الكبير ٣١: ٢٠٧، والتبيان في إعراب القرآن ٢: ٤٦٦، والتسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤٩٠، والبحر المحيط ٢١: ٣٩٤، وروح المعاني ١٥: ٣٨٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤، وأضواء البيان ٧: ٣٠٧، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٧.

(٢) انظر: مغني اللبيب ١: ٦٧، ورصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبدالنور المالقي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة ١٤٣٥هـ ــ ٢٠١٤م ١٨١ــ ١٨٢.

ومعناها ووظيفتها النسقية خلاف، فقيل: هي فاء استئناف[١]، وقيل: هي رابطة لجواب شرط آخر مقدّر[٢]، تقديره: "إذا كنت تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربك، وبيّن له الشكر بقوله: ﴿أَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾"[٣]، ولذاك قيل: إنها (فاء) الفصيحة؛ لأنها قد اجتُلِبَتْ للإفصاح عن ذلك الشرط المقدر[٤]، ويفهم من كلام البقاعي أنه يعدّها (فاء) السببية؛ إذ قال: (ولما ذكّره بما أنعم عليه به من هذه النعم الثلاث أوصاه بما يفعل في ثلاث مقابلة لها، فقال مسبّبا عنه مقدّما معمول ما بعد الفاء عليها اهتماما ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ﴾)[٥]، والحق أنّ هذا الخلاف بين العلماء ــ الذي يمتدّ إلى كتب النحو مرّة؛ ويُستَمَدُّ منها أخرى ــ يدلّ على غموض شديد في هذه (الفاء) وعلى تداخل في معانيها، وعلى لبس في شأنها؛ جعل كلّا منهم يجتهد في وضع التقديرات الصناعية الطويلة التي لا دليل عليها، وفي تصوّر التأويلات البعيدة

---

(١) انظر: المجتبى ص ٥٩٦.

(٢) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩، ورأي صاحب الجدول مدخول لأنه نقض هنا إعرابه للفاء في قوله تعالى: (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) حيث أعربها هناك (استئنافية) مع أنّهما واحدة. انظر الجدول: ١: ٦١.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤.

(٤) انظر: المصدر نفسه ٣٠: ٣٥٤، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١١.

(٥) نظم الدرر ٨: ٤٦٧.

التي لا سند لها؛ في محاولة لتحديد نوع هذه (الفاء) من جهة الصنعة النحوية المحضة لا من جهة وظيفتها البيانية الحقيقية البسيطة الواضحة القريبة، وبصرف النظر عن هذا الخلاف وعمّا قيل في شأن نوع (الفاء) هنا؛ فإنّ الأقرب إلى موقعها من نسق الكلام، والأكثر تلاؤما مع صورة ما قبلها وما بعدها من الكلام، والأكثر انسجاما مع ما سبقها وما تلاها من المعاني ومع علاقة ما قبلها بما بعدها ومع وظيفتها البيانية الحقيقية الدقيقة في الربط بين ما قبلها وما بعدها في هذا الموضع تحديدا، وفي نظائره من المواضع في القرآن الكريم(١) وفي غيره من الكلام أن تسمى (فاء التفصيلية)؛ إذ من الواضح أنّ الفصل والتفصيل يمثّل وظيفتها البيانية الأولى في هذا الموضع وفي نظائره، ذاك لأنها تأتي دائما ــ في مثل هذا الموضع ــ لفصل الكلام الذي يليها عن الكلام الذي سبقها، وللدلالة على استهلال تفصيل ما يليها من المعاني على ما سبقها منها، وترتيبها عليها واحدا بعد الآخر، وهذا هو الذي يميّز ﴿فَ﴾ هنا عن سواها من الفاءات، ولذلك يحسن أن تسمى بما يميزها من جهة وظيفتها البيانية الحقيقية، ثم إنها بعد ذلك مشربة ــ بحكم وظائفها البيانية في هذا الموضع وأمثاله ــ بمعاني العطف والاستئناف

(١) من مواضعها في القرآن الكريم: سورة البقرة. الآية ٢٦، وسورة آل عمران. الآية ١٠٦، وسورة هود. الآية ١٠٦، وسورة فصّلت. الآية ١٥، وسورة الحاقة. الآية ٥، والآية ١٩، وسورة الانشقاق. الآية ٧، وسورة الفجر. الآية ١٥، وسورة الليل. الآية ٥.

والسببية والجزاء والتعقيب، أمّا العطف؛ فإنه قد عطف بها ما بعدها على ما قبلها من باب عطف القصة على القصة، لا من باب عطف الجملة على الجملة، وأمّا الاستئناف؛ فلأنّ فيها قطعا لما سبقها من الكلام، وإغلاقا لما فيه من المعاني، واستئناف كلام جديد مختلف، ومعاني أخر مختلفة عمّا سبق على نحو مّا، وإن ارتبطت بها على صورة من الصور، وأمّا كونها سببية فلكون ما سبقها سبب لما بعدها وعلّة لوجوده، ولكون ما بعدها مسبَّب عما قبلها ومعلولا به، وأما الجزاء فلكونها تتضمن الدلالة على أنّ ما بعدها جزاء لما قبلها، ناتجا عنه، وأمّا التعقيب فلكون ما بعدها عاقبة لما قبلها، مرتبا عليه، تاليا له، ومن هنا فقد دلت ﴿فَ﴾ بوظائفها البيانية النسقية باتجاه ما سبقها على أنه قد فرغ من الكلام السابق، ومن المعاني المتجانسة التي انطوى عليها ذلك الكلام، كما دلّت باتجاه ما بعدها على أنّ كلاما جديدا قد استؤنف، وعلى أنّ جملا أخرى متجانسة تجانسا آخر قد استهلت، وعلى أنّ معاني جديدة مختلفة قد بدئت، كما دلّت على أنّ ما بعدها ليس معطوفا على ما قبلها من باب عطف الجمل على الجمل، لكنه ليس منقطعا عنه كل الانقطاع، وإنما هو منه ــ في مجمله ــ بمثابة المفصل عليه بحسبه، والجزاء له، المسبب عنه، المتفرع منه، العاقب له، المترتب عليه[1]. تبع ﴿فَ﴾ وارتبط بها في النسق والترتيب وجانسها في الدلالة في هذا الموضع ﴿أَمَّا﴾، قيل

(١) سيبين هذا المعنى في (الفاء) على صورة أجلى في المستوى الآتي.

فيه: هو حرف شرط وتوكيد وتفصيل[1] غير ذلك المقدّر الذي قبل ﴿فَ﴾ التي سبقته، أوّلوه بحرف الشرط وجملته: (مهما يكن من شيء) معاً، مبني على السكون، وعلى ذلك فتقديره في الآية مع جوابه: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم[2]، قالوا: فلذلك جاء جوابه بالفاء، واستدلوا بهذه ﴿فَ﴾ التي في جوابه على كون ﴿أَمَّا﴾ حرف شرط،[3]، فهذا هو التوجيه النحوي في هذا الحرف، ولو نزع من ﴿أَمَّا﴾ هنا تأويلها على معنى الشرط: (مهما يكن من شيء)، وجعلت جنسا قائما برأسه؛ يفهم معناه ويحدد نوعه وتحدد وظيفته بحسب السياق الذي ورد فيه[4]، وقيل فيها ــ في هذا الموضع وما

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١١، والمجتبى ٥٩٦.

(٢) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص١٢١، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٤، ورصف المباني في شرح حروف المعاني ١٨١ــ ١٨٢، والمحرر الوجيز ٥: ٤٩٥، و التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤.

(٣) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١٢١، ورصف المباني في شرح حروف المعاني ١٨١ــ ١٨٢، و مغني اللبيب ١: ٦٧، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١١.

(٤) مما تحسن الإشارة إليه هنا أن النحويين والمفسرين يتعاملون مع (أمّا) على أنها ضرب واحد، تأويله عندهم (مهما يكن من شيء)، لكن الرّمّاني يفرّق بين ثلاثة استعمالات لـ (أمّا)، الأول: التفصيل، وقد مثّل له بآيات سورة الضحى هذه، والثاني القطع، ومثّل له بما يرد في أوائل الكلام: (أمّا

يشبهه(١) ــ هي حرف (تفصيل وجزاء) يستلزم جوابا، وقيل في ﴿فَ﴾ التي تليها إنها ﴿فَ﴾ الواقعة في جواب ﴿أَمَّا﴾؛ وتركت الآية على حالها: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ كما جاءت عن الخالق تعالى لكان لذلك سنده القوي من البلاغة والبيان، ولكان أسمح لها، وأليق بها، وألصق بمعناها السياقيّ وبوظيفتها البيانية الحقيقية الواضحة؛ من تأويلها بـ (مهما يكن من شيء) لما في هذا التأويل من بُعد

=بَعْدُ)، والثالث: قريب من الشرط، ومثّل له بقوله: (أمّا أنت منطلقا انطلقتُ معك)، وأورد عليه قول الشاعر:

أبا خراشة أمّا أنت ذا نفر فإنّ قومي لم تأكلهم الضَّبُعُ

[راجعه في كتاب: معاني الحروف، أبو الحسن علي بن عيسى الرُّمّاني، تحقيق: عرفان بن سليم العشا حسونة، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت، لبنان، طبعة ١٤٣٥هـ ــ ٢٠١٤م ص١٨٦]. وهذا الذي قاله الرماني يشير إلى كون (أمّا) ليست ضربا واحدا، كما يدل على لبس في شأنها، وعلى أنه لا يسوغ حملها في كل مرة على معنى الشرط وجملته: (مهما يكن من شيء).

(١) مما يشبه هذا الموضع في القرآن الكريم: سورة البقرة. الآية ٢٦، وسورة آل عمران. الآيتان ١٠٦ ــ ١٠٧، وسورة هود. الآيات ١٠٦ ــ ١٠٨، وسورة الكهف. الآيات ٧٩ ــ ٨٢، وسورة فصّلت. الآيات ١٥ ــ ١٦، وسورة الحاقة. الآيات ٥ ــ ٦، ١٩ــ٢٤، وسورة عبس. الآيات ٥ــ ٨، وسورة الانشقاق. الآيات ٧ــ ١١، وسورة الفجر. الآيتان ١٥ ــ ١٦، وسورة الليل. الآيات ٥ــ ٨.

وتعسّف، ومن كثرة المقدرات بلا دليل، ومن طولٍ بلا فائدة بيانية ولا مسوغ، ولما سيترتب عليه من تكرار بلا داع، ولما فيه من إخضاع لكلام الله تعالى للصنعة النحوية المحضة، وإنه ليتمثل في النفس جليّا واضحا بلا لبس؛ ركاكة هذه التوجيهات النحوية في ﴿أَمَّا﴾ وفي ﴿فَ﴾ التي قبلها في هذا الموضع، وتعسفها وخروجها بالكلام ــ لفظا ومعنى ــ عن وجهه، وابتعادها به عن حد الفصاحة والبيان، وعمّا يجب أن يكون عليه الكلام من الإحكام والقرب مع السماحة وحسن العبارة؛ عندما تُظهَر هذه التقديرات في سياق الكلام، ويؤتى بالكلام على تأويل الشرط فيهما هكذا: (ألم يجدك يتيما فآوى. ووجدك ضالّا فهدى. ووجدك عائلا فأغنى. إذا كنت تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربك، فمهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم. ومهما يكمن من شيء فلا تنهر السائل. ومهما يكن من شيء فحدّث بنعمة ربك)؛ تنزه الله وكتابه عن هذا اللغو الصناعي النحوي الذي لا ثمرة له، وهذه هي محصلة هذين التأويلين وحقيقتهما في الحرفين: ﴿فَأَمَّا﴾. لقد جاء ﴿أَمَّا﴾ في هذا الموضع من النسق ليُقطع به مع الـ ﴿فَ﴾ الكلام عن أشياء، ويُبدأ بهما الكلام عن أشياء أخرى، وليُدلّ بهما معاً على معاني مفصّلة آتية، وعلى علاقة تلك المعاني المفصّلة الآتية بما سبقها، وتفصيلها عليها[1]، وهذه هي

(١) كما سيتضح في نسق المقاطع والنسق التناظري في المستوى الآتي.

الوظيفة البيانية الحقيقية لهذين الحرفين[1]. تبع ﴿أَمَّا﴾ في النسق ﴿الْيَتِيمَ﴾، وهو مفعول به مقدم[2] منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره، و﴿الْ﴾ في ﴿الْيَتِيمَ﴾ للجنس، وقد تقدّم في النسق النحويّ وفي ترتيب عناصر الجملة على ﴿فَ﴾ الواقعة في جواب ﴿أَمَّا﴾ التفصيلية وعلى أداة النهي ﴿لَا﴾ وعلى الفعل العامل

(١) من أقرب الأدلة على كون (أمّا) في هذا الموضع وأشباهه إنّما هي حرف فصل وتفصيل فحسب، وأنه لا علاقة لها بمعنى الشرط، دخولها على أدوات الشرط؛ كما يتضح ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، ومن ذلك دخولها على حرف الشرط الأصلي (إنْ)، ومجاورتها له واقترانها به في قوله تعالى في الآيات (٨٨ ــ ٩٣) من سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ. وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَبِ الْيَمِينِ. فَسَلَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَبِ الْيَمِينِ. وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ. فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، فلو كانت ــ دائما ــ أداة شرط بمعنى (مهما يكن من شيء) لما جاز دخولها على أداة الشرط (إن)، وهنا يبين أنها حرف فصل وتفصيل؛ لا غير، ويبين كذلك حقيقة كون (الفاء) هنا ليست جوابا لشرط مقدّر.

(٢) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ٢١٢، والتبيان في إعراب القرآن ٢: ٤٦٦، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٤، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤، والمجتبى ص ٥٩٦، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد ٦: ٤٢٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١٠. والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩.

فيه ﴿تَقْهَرْ﴾ وفاعله، وأخذ في ترتيب الجملة موضع الصدر بعد ﴿أَمَّا﴾ مع كونه مفعولا به يأخذ من العبارة ــ في الأصل ــ موضعا بعد الفعل والفاعل، وإنّما قدّم للدلالة على كونه موضع التفصيل في هذه الجملة(١)، وتبعا لذلك دُلّ بالتقديم على الاهتمام بشأنه(٢)، وعلى كونه ــ في هذا الموضع تحديدا ــ موضع الأولَى بالعناية والرعاية والحنان والتقديم(٣)، ثم إنّ هذا التصرف في نسق الجملة قد تضمّن الدلالة على ما هو أبعد من هذا كله؛ فإنّ في تقديم المفعول به ﴿الْيَتِيمَ﴾ إلى هذا الموضع، وفي نقله ــ في نسق الكلام ــ من موضعه الأصلي في ذيل الجملة إلى موضعه المتقدم في صدرها معنى بيانيا جديدا بالغ اللطف والدقّة، إذ تضمن الدلالة على إبعاد ذلك المفعول به عن تسلّط فعل (القهر) وفاعله عليه، وكأنه بذلك ليس منهيّا عن قهر اليتيم فحسب؛ بل مأمورا برعايته وتقديمه ومبادأته بالخير والإحسان والحماية، وفي ذلك كله الدلالة على ما يجب أن يحظى به اليتيم ــ في الواقع ــ من الرعاية والعناية والتقديم وحسن التعامل، وحمايته من كل شيء يؤذيه أو يضره أو يثقل عليه أو يشعره بالقهر وعدم الرضا، وهو يستحق ذلك، وفي جملة ذلك إشارة إلى أنّ جبر الخواطر واستئلاف الخلق من أعظم

---

(١) من الملاحظ أن تقديم ما هو موضع التفصيل بعد (أمّا) مطّرد في كل موضع جاءت فيه (أمّا) التفصيلية.

(٢) انظر: نظم الدرر ٨: ٤٥٧، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤.

المقاصد في تمام الدين[1]، فلما ذكر ﴿الْيَتِيمَ﴾ بما لهذه اللفظة من أصل دلالتها الوضعية، وبما أشربته ــ بموقعها من النسق والترتيب ــ من معاني ودلالات إضافية جاء حرف الـ ﴿فَ﴾ في ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ قيل: هي فاء الواقعة في جواب الشرط[2] على ما سبق بيانه في تأويل ﴿أَمَّا﴾ عندهم، والوجه أن يقال فيها: هي فاء الواقعة في جواب ﴿أَمَّا﴾ التفصيلية، حرف مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، جيء بها للدلالة على كون ما بعدها من الجملة ﴿لَا تَقْهَرْ﴾ جزاءً لما قبلها من تلك الجملة ﴿أَمَّا الْيَتِيمَ﴾، وعلى ارتباط ما بعدها بما قبلها ارتباط الشيء بجزائه، تبع ﴿فَ﴾ في النسق ﴿لَا﴾ وهي حرف نهي[3] جازم للفعل المضارع مبني على السكون لا محل له من الإعراب، وذلك لإيقاع معنى النهي المودع فيها على سائر الجملة التي تليها (تقهر)، تلاها ــ في نسق الكلام وترتيبه ــ الفعل المضارع المجزوم[4] بـ ﴿لَا﴾ النهي ﴿تَقْهَرْ﴾ وعلامة جزمه

(١) انظر: نظم الدرر ٨: ٤٥٧.

(٢) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١٢١، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤، والمجتبى ٥٩٦.

(٣) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١١، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩.

(٤) انظر: المصدر نفسه ١٠: ٥١١.

السكون الظاهر، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوبا تقديره (أنت)[1] عائد على المخاطب، وهو المنهي عن وقوع فعل (النهر) منه على المفعول به ﴿الْيَتِيمَ﴾ المقدّم، وجملة ﴿أَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، معطوفة بـ ﴿فَ﴾ على ما قبلها عطف استئناف، ومرتبطة بها ارتباط تعقيب وسببية وعلة وجزاء.

٨ ــ **الآية العاشرة:** ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

تشبه هذه الآية الكريمة الآية التي سبقتها في الصورة النحوية، إذ تتركب ــ حسب ما يقتضيه حسن البيان ــ من جملة نهي إنشائية واحدة، استهلّت بحرف الـ ﴿وَ﴾ في عبارة ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ لعطف[2] هذه الجملة على الجملة التي سبقتها، ووصلها بها، تبعها ــ في النسق ﴿أَمَّا﴾ حرف تفصيل مبني على الفتح لا محلّ له من الإعراب، وجاء هذا الحرف في هذا الموضع من النسق فدلّ به مع حرف العطف ﴿وَ﴾ على مفصّل ثان آتٍ، تلاه في النسق ﴿السَّائِلَ﴾ وهو مفعول به منصوب[3] وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على

---

(١) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١٢٢، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١١.

(٢) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١١، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩، والمجتبى ص ٥٩٦.

(٣) انظر: التبيان في إعراب القرآن ٢: ٤٦٦، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٤، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩.

آخره، و﴿ال﴾ في ﴿السَّائِلَ﴾ للجنس، أي: جنس السائل[1] بلا تحديد، وقد قُدِّم المفعول به في نسق الجملة وترتيبها النحوي على ﴿فَ﴾ الواقعة في جواب ﴿أَمَّا﴾ التفصيلية، وعلى ﴿لَا﴾ النهي وعلى الفعل العامل فيه وفاعله، وأخذ من ترتيب عناصر الجملة موضع الصدر مع كونه مفعولا به يأتي ــ أصلا ــ بعد الفعل والفاعل؛ فدُلَّ بهذا التقديم على كونه موضع التفصيل في الجملة، وعلى كونه موضع العناية والاهتمام والتقديم في هذه العبارة، مع الدلالة على إبعاد ذلك المفعول به عن تسلط فعل (النهر) وفاعله عليه، والدلالة على إبعاده عن الوقوع في سياق النهي، وكأنه بذلك ليس منهيّا عن نهره فحسب؛ بل منهيّا عن نهيه أيضا، وعن تعطيله عن السؤال، ومن ثم مأمورا بقبول أسئلته، وهذا معنى عميق جدا، له علاقة ــ هنا ــ بالدين وبكمال فهمه، وبكمال مهمة التبليغ، ثم إنّ في ذلك كله دلالة على ما يجب أن يحظى به السائل؛ أيّ سائلٍ ــ في الواقع ــ من الرعاية والعناية والتقديم وحسن التعامل، وهو يستحق ذلك، فلما تحققت بتقديم المفعول به هذه المعاني التي ما كانت لتتحقق لولا هذا التصرّف في نسق عناصر تركيب الجملة وترتيبها؛ جاء حرف الـ ﴿فَ﴾ في عبارة ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾، ويقال فيها ــ من المعاني والدلالات النسقية ــ ما قيل فيها في عبارة ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾؛ فإنّها هي، تبع الـ

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٥.

﴿فَ﴾ في الترتيب حرف النهي ﴿لَا﴾[1]، وقد جاء في الترتيب في رأس جواب ﴿أَمَّا﴾ لتكون صورة الجملة هكذا: ﴿لَا تَنْهَرْ﴾ لإيقاع النهي بها على سائر الجملة، فوقع بها النهي عن وقوع الفعل الذي تلاها ﴿تَنْهَرْ﴾ ــ وهو فعل مضارع مجزوم بـــ ﴿لَا﴾ الناهية، وعلامة جزمه السكون الظاهر ــ من الفاعل الذي هو الضمير المستتر وجوبا الذي تقديره (أنت)؛ العائد على المخاطب الذي هو محمد ﷺ، على المفعول به الذي هو ﴿السَّائِلَ﴾ المقدّم، وجملة ﴿أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، معطوفة على الجملة قبلها عطف استئناف.

٩ ــ **الآية الحادية عشرة**: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

تتركب هذه الآية الكريمة من جملة أمرٍ إنشائية، استهلّت بحرف الـ ﴿وَ﴾ لعطف[2] هذه الجملة الإنشائية على ما سبقها، ووصلها به، ونسقها عليه[3]، تبعتها ﴿أَمَّا﴾ التفصيلية، وجاء هذا الحرف في هذا الموضع من النسق مثله في الموضعين السابقين؛ ليُدَلَّ به مع حرف العطف الـ ﴿وَ﴾ على مفصّل ثالث آتٍ، تلاه في النسق عبارة ﴿بِنِعْمَةِ﴾ المركبة من الـ ﴿بِ﴾ وهو حرف جرّ مبني على الكسرة

(١) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩، وسبق إعرابها.

(٢) انظر: المصدر نفسه ٣١: ٣٠٠.

(٣) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١١.

الظاهرة، لا محل له من الإعراب، و﴿نِعْمَةِ﴾ وهو اسم مجرور بالباء وعلامة جره الكسرة الظاهرة، و﴿نِعْمَةِ﴾ مضاف، والجارّ والمجرور متعلقان بفعل الأمر ﴿حَدِّثْ﴾ المؤخر عنهما(١)، وقد قدّم الجار والمجرور ﴿بِنِعْمَةِ﴾ على ﴿فَ﴾ الجزاء وعلى الفعل الذي هما متعلقان به ﴿حَدِّثْ﴾ وفاعله للدلالة على كون ﴿نِعْمَةِ﴾ موضع التفصيل، مثلها مثل (اليتيم، والسائل) في الموضعين السابقين، كما تضمّن هذا التقديم الدلالة على كون ﴿نِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ هي موضع العناية والاهتمام والتقديم في هذه العبارة، ومن ثمّ الدلالة على كونها يجب أن تحظى ــ في الواقع ــ بهذا القدر الذي حظيت به في نسق الكلام، وأخيرا؛ فإن في هذا التقديم في النسق إشارة إلى ما يجب على الإنسان تجاه نعم الله عليه، وعلى كون ذلك من تمام الدين، فلما تحقق بهذا التقديم لمتعلق الفعل هذه المعاني الإضافية التي ما كانت لتتحقق لولا هذا التصرف في نسق الجملة وترتيبها؛ تتابع النسق المفيد، فأضيفت ﴿نِعْمَةِ﴾ النكرة إلى ﴿رَبِّ﴾ النكرة أيضا لإفادة تخصيص ﴿نِعْمَةِ﴾، ثم أضيف ﴿رَبِّ﴾ إلى ضمير المخاطب ﴿كَ﴾

(١) انظر: التبيان في إعراب القرآن ٢: ٤٦٦، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد ٦: ٤٢٠، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٤، والمجتبى ص ٥٩٦، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١١، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١: ٢٩٩.

لإفادة تعريف النكرة ﴿رَبِّ﴾، ولتختم هذه السورة بإعادة بيان ما يحظى به (المخاطب) المضاف إليه محمد ﷺ من رعاية وعناية واهتمام وتشريف وتكريم وتحنن عليه وتقديم، ثم جاءت الـ ﴿فَ﴾ الواقعة في جواب ﴿أَمَّا﴾ التفصيلية للدلالة بها على جزاء المفصّل الثالث وما ينبغي تجاهه، تبعها فعل الأمر ﴿حَدِّثْ﴾ وهو فعل أمر(١) مبني على السكون الظاهر، وفاعله الضمير المستتر العائد على المخاطب، فدُلّ بذلك على جزاء التفصيل الثالث، وعلى ما ينبغي على المخاطب من عمل تجاه نعمة ربه، وجملة ﴿أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ معطوفة على الجملتين قبلها لا محل لها من الإعراب(٢).

وبانتهاء هذه الآية؛ انتهت السورة الكريمة، وأغلق نسقها النحوي وترتيب ألفاظها وتراكيبها وجملها، وقد تبيّنت طبيعة نسق السورة في مستواه النحوي، وما يقوم عليه ذلك النسق والترتيب من مسوغات وعلل وعلاقات نحوية، وما ينطوي عليه من أسرار ولطائف ودقائق بيانية.

ثانيا: النسق المعنوي

فُرِغ في المستوى السابق من عرض نسق هذه السورة وتحليله على مستوى النظام النحوي، وقد تجلى من خلال ذلك العرض

---

(١) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١٢٣.

(٢) انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥١١.

والتحليل طبيعة نسق السورة على هذا المستوى، وما يقوم عليه من المسوغات والعلل والعلاقات، وما يكمن فيه من اللطائف والدقائق البيانية، وإذا كان النسق النحوي يتعلق بالنظام النحوي في الكلام من جهة ما يقوم عليه هذا النظام من علاقات نسق عناصر تكوين الكلام داخل الكتلة النحوية الواحدة وترتيبها وتتابعها بعضها في إثر بعض؛ فإنّ في نسق الكلام عموما؛ وفي نسق هذه السورة الكريمة خصوصا؛ تتابع وترتيب وتوال على مستوى المعاني، وكما أنّ النسق النحوي في الكلام يقوم على مسوغات وعلل وعلاقات نحوية، وكما أنّه تكمن فيه لطائف ودقائق وأسرار وخصوصيات بيانية على نحو ما تم بيانه في المستوى السابق؛ فكذلك نسق المعاني في الكلام وترتيبها؛ يقوم على مسوغات وعلل وعلاقات بيانية عميقة، ويتحقق للكلام ــ من جهته ــ من اللطاف والدقائق والأسرار والخصوصيات البيانية ما يشبه ما يتحقق للكلام من ذلك من جهة النسق النحوي، ولذلك؛ فإنّ نسق المعاني وتواليها وترتيبها وتتابعها بعضها في إثر الآخر يمثّل ــ في حدّ ذاته ــ مستوى آخر بالغ الأهمية من المستويات التي تأتي من جهتها مزايا الكلام ومحاسنه، ومكمنا من مكامن أسراره ولطائفه وخفاياه، وموضعا من المواضع الأساسية التي يتحقق من جهتها تفاضل الكلام وتفاوته، وقد يأتي الكلام على مستوى الجملة الواحدة جيد النسق والتتابع والترتيب، محكما، جاريا

على ما يقتضيه نظام النحو وأصوله وقواعده، لكنه قد لا يكون كذلك على مستوى نسق المعاني وترتيبها وتجاورها، والفرق جدّ كبير بين كلام أحكم فيه ترتيب المعاني وتواليها وتسلسلها وتتابعها، حتى كأنّ المعنى السابق يدفع بك إلى الذي يليه، وحتى كان المعنى الأوّل في منزلة الأبِ أو الشقيق الأكبر للذي يأتي بعده، وحتى كأنّ نظام معاني النصّ جسد واحد منتظم، محكم جميل الخلقة، متماسك الأجزاء، متناسق الأعضاء. وإذا كان الأمر كذلك فبنا ننظر في هذه السورة الكريمة من جهة نسق معانيها وتجاورها، وترتيبها وتواليها، وتسلسلها؛ لنرى كيف جاء هذا النسق والترتيب؟، وعلى أيّة علاقات قام؟، وما الذي يكمن فيه من أسرار ولطائف وخفايا ومحاسن؟.

لقد تبيّن من خلال التحليل النحويّ التفصيلي في المستوى الأول أنّ آيات هذه السورة الكريمة قد انطوت على عدد من الجمل الاسمية والفعلية، الإنشائية والخبرية المكتمل كلّ منها من جهة تركيبها النحويّ الأساسي، وتبيّن أنّ من هذه الجمل الكبيرة ما دخل مع سواها في تركيب جملة كبرى استغرقت أكثر من آية؛ كما هو الحال في الآيات الثلاث الأولى التي استغرقتها جملة واحدة كبرى، هي الجملة القسمية المركبة من جملتي القسم وجوابه والمعطوف عليه، ومنها ما دخل مع أخرى في علاقة تلازم تعاطفٍ وتعاقب وسببية؛ كما هو الحال في الآيات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة، ومنها

ما جاء في صورة جملة بسيطة واحدة؛ كما هو الحال في الآيات الرابعة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة، ثم إنّ هذه الجمل التسع ــ بأنواعها الثلاثة ــ قد جاءت للتعبير عن المعاني الجزئية والرئيسة التي تتركب من مجموعها السورة الكريمة، ويقوم عليها نسق أجزائها من أولها إلى آخرها. وعند التدقيق في هذه المعاني الجزئية والرئيسة وفي الصورة التي جاء عليها نسقها وترتيبها وتواليها، وفي ما يقوم عليه ذلك النسق من مسوغات وعلل وعلاقات بيانية؛ يتبين أنّ نسق المعاني في هذه السورة خاصة ليس بسيطا، ولا عاديّا؛ بل هو نسق مركّب، يأتي على "ثلاثة أوجه" مختلفة، يكمل بعضها الآخر، وله على كل وجهٍ من الوجوه الثلاثة صورة مختلفة، يقوم كلّ منها على نوع مختلف من مسوغات الترتيب وعلله وعلاقاته، وفي كلٍّ منها أسراره ودقائقه ولطائفه البيانية الخاصة، وفي ما يأتي تفصيلات ذلك على كلٍّ من هذه الأوجه الثلاثة:

الوجه الأوّل: النسق المعنوي الجزئي

والمقصود بالنسق المعنوي الجزئي؛ وجود كلّ معنى من معاني السورة الكريمة بجوار المعنى الذي سبقه أو الذي تبعه في الترتيب، واستقلاله عنه أو تبعيته له، وعلاقته به، ووقوعه في الموضع الذي هو فيه ــ من النسق والترتيب والتوالي ــ نسبة إلى جاره، دون النظر إلى موضع ذلك

المعنى من النسق الكلي العام نسبة إلى سائر معاني السورة مجتمعة، أو إلى مقاطعها، وهذا يعني أنّ التركيز في هذا الوجه من النسق المعنوي سيكون على تحديد معاني السورة واحد واحدا، والنظر في استقلال كل معنى عن جاره الذي سبقه أو تبعه أو تبعيته له، والكشف عن سرّ مجاورته لجاره، وعن علاقته البيانية به، وعن سرّ وجوده بعده في النسق والترتيب، وعمّا يكمن في ذلك النسق والترتيب من لطائف بيانية، وفي ما يلي تفصيلات ذلك:

المعنى الأوّل: القَسَمُ على نفي خَبَري التوديع والقلى

يتمثل المعنى الرئيس الأول الذي استهلت به السورة الكريمة في (القسم بالضحى والليل حال سجوّه على نفي خبري التوديع والقلى من الله تعالى لرسوله ﷺ)، كناية عن نفي انقطاع الوحي وانقطاع علاقة الله تعالى بنبيّه، وكما هو بيّن؛ فقد صُوّر هذا المعنى المركب من (القسم وجوابه) في جملة قسمية كبرى استغرقت آيات صدر السورة الثلاث على هذه الصورة: ﴿وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، التي جاءت في ثلاث جمل كبيرة هي جملة القسم الإنشائية: ﴿وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ٢﴾، وفيها الجملة التقييدية الفرعية ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، وجملة جواب القسم الخبرية المنفية: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، والجملة الخبرية المنفية المعطوفة عليها: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾، ومن هنا؛ فإنّ هذا المعنى الرئيس الممثل في هذه

الجملة القسمية الكبرى يتركب من ثلاثة معاني جزئية؛ هي: القسم بالضحى وبالليل حال سجوّه، ونفي أنْ يكون الله قد ودع نبيه، ونفي أنْ يكون الله قد قلى نبيه. وقد حصل التركيب في هذا المعنى من خلال اندماج هذه المعاني الثلاثة في القالب القسمي الوضعي، المركب ــ أصلا ــ من القسم وجوابه، وتواليها فيه وترابطها حتى أصبحت معنى مركبا واحدا، وذلك بجعل الجملة الإنشائية في صدر الجملة القسمية: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، بمثابة أداة توكيد دخلت على الخبرين المنفيين ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، لتوكيد نفيهما؛ فامتزجت المعاني الثلاثة، وتركبت تركيب المُؤكَّد ومُؤكِّدِه، وأصبحت معنى رئيسا واحدا. وبالتدقيق في نسق طرفي الجملة القسمية الكبرى من أصل وضعه، وفي نسق المعاني الجزئية الثلاثة التي تركب منها معنى هذه الجملة القسمية، وفي الصورة التي جاءت عليها تلك المعاني الجزئية من الترتيب والتتابع والتسلسل، ثم في الموقع الذي وقع فيه هذا المعنى الرئيس الأوّل من نسق معاني السورة جملة، وفي الموضع الذي أخذه في ترتيبها وتواليها وتسلسلها؛ يتجلى أنه قد جاء ذلك النسق والترتيب على ثلاثة مستويات، وللنسق والترتيب على كلّ من هذه المستويات الثلاثة مسوغات وعلل، وله في كلٍّ منها لطائف وأسرار ودقاق بيانية. هذه المستويات هي:

الأوّل: نسق طرفي الجملة القسمية

تتركب الجملة القسمية ــ من أصل وضعها ـــ من جزأين هما القسم وجوابه، وفي نسق قالب الجملة القسمية عموما وهذه الجملة خصوصا؛ على هذه الصورة علل ولطائف بيانية؛ منها:

أولا: استهل نسق قالب الجملة القسمية أصلا بالقسم؛ لأنّ القسم من أساليب التوكيد التي لها موقع الصدارة في الجملة؛ والعلّة في تصدر القسم للجملة القسمية وتقدّمه في الترتيب على الجواب تكمن في أنّ وظيفته البيانية توكيدية، منصبة على الجواب لتوكيده.

ثانيا: ذِكرُ القسم في هذا الموضع من ترتيب الجملة القسمية يدلّ ــ من أوّل وهلة ــ على أنّه سيتلوه جواب قسم، ويدلّ على أنّ ذلك الجواب المتأخر هو موضع تأكيد وعناية وأهمية.

ثالثا: ذِكرُ القسم يستلزم ذكرَ الجواب الذي جاء لتوكيده، وبذلك يكون القسم سببا من أسباب ترابط عناصر الجملة القسمية، وأداة من أدوات نسق جزأيها وتواليهما وترتيبهما وترابطهما.

رابعا: في تقديم القسم المضاعف في نسق هذه الجملة القسمية ــ خاصّة ــ وترتيبها، بما في ذلك التقديم من تلك اللطائف، وبما فيه ــ أيضا ــ من الدلالة على عظمة المُقسِم جل وعلا، ومن عظمة المقسَم به بعثٌ لمزيد من العناية والاهتمام والتشوق والتشوف في نفس المخاطب، وإثارةٌ لتطلعه إلى معرفة جواب القسم، وتهيئة له

لتلقي ذلك الجواب، حتى إذا قامت ــ بذكر القسم على تلك الصفات ــ هذه الأحاسيس، واستحكمت، وبلغت نفس المخاطب ذروة العناية والاهتمام بذلك الجواب، وبلغت قمّة تحفزّها لتلقيه في شوق وقبول وبشاشة وتسليم ويقين؛ نُسِق عليه الجواب؛ فوقع في مدركات المخاطب العقلية والوجدانية وقوعا عميقا متمكّنا مؤكدا، يليق بعظمة المُقسِم وبعظمة المُقْسَم به، ويليق بعظمة الخبرين وأهميتهما. ولم يكن شيء من هذه اللطائف البيانية ليتحقق للخبرين ــ غير مجرّد النفي ــ لو أنهما لم يسبقا في نسق الآيات بهذا القسم المضاعف، كما لم يكن شيء من هذه اللطائف والدقائق البيانية ليتحقق في نسق جزئي هذه الجملة القسمية المركبة؛ لو أنها لم تأتِ على هذه الصورة المخصوصة من نسق جزئيها وترييهما وتواليهما.

الثاني: نسق المعاني الجزئية الصغيرة في الجملة القسمية الكبيرة

اتضح في العنصر السابق بعض اللطائف البيانية القائمة في نسق جزأي الجملة القسمية وتواليهما وترتيبهما، وفي مجيء كلّ منهما في الموضع الذي هو فيه من نسق الجملة، لكن التدقيق في الصورة التي جاء عليها نسق المعاني الجزئية الثلاثة نفسها داخل جزأي هذه الجملة يجلو بوضوح عن انطواء ترتيب هذه المعاني الجزئية وتواليها في النسق داخل الجملة القسمية الكبرى على مزايا ولطائف بيانية إضافية بالغة الأهمية غير ما تقدّم الكشف عنه في النسق

النحوي، وغير ما تقدم بيانه للتوّ من لطائف مجيء جزئي الجملة القسمية على تلك الصورة، ويمكن حصر هذه المزايا واللطائف البيانية في العناصر الأساسية الآتية:

أوّلا: الأصل في نسق القسم أنه متّصل، لا فصول فيه ولا وقف، كما في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾(١)، وفي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾(٢) وأشباههما، كما أنّ الأصل في نسق جزأي المعنى المركب في الجملة القسمية (قسما وجوابا) أنهما متّصلان أيضا، لا فصل بينهما، ولا وقف فيهما، كما في قوله تعال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾(٤) وأشباههما، إلا أنّه في هذه السورة الكريمة قد نُسِق القسم على الفصل بالوقف بين المقسم به الأوّل والمقسم به الثاني؛ مع كون المقسم به الثاني معطوفا على المقسم به الأوّل عطف مفرد على مفرد، ثم تكرر الفصل بالوقف بعد المقسم به الثاني وقيده؛ قبل المرور إلى ذكر المقسم عليه؛ فجاء القسم في السورة على هذه

---

(١) سورة التين. الآية ١.

(٢) سورة الطارق. الآية ١.

(٣) سورة مريم. من الآية ٦٨.

(٤) سورة النساء. من الآية ٦٥.

الصورة: ﴿وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ٢﴾، وفي هذا الفصل في النسق من اللطائف البيانية ــ إضافة إلى ما ذكر في النسق النحوي ــ زيادة التمييز بين المقسم بهما، وإظهار كلّ منهما مستقلا عن الآخر؛ حتى كأنّ كل واحد منهما مقسما به قائما بذاته، وفيه إشارة إلى ما يلزم عند تلاوة هذه العبارة القرآنية من التمهّل والتريّث والصمت عند كل فاصلة؛ لأن ذلك يؤدي إلى المزيد من التروّي والنظر والتفكّر في ما يُقرأ، وإلى لفت الانتباه إلى عظمة الآيتين المقسم بهما، وإلى التركيز على كل منهما على حِدَه، والتفكر فيها وفي ما تنطوي عليه من معالم قدرة الله تعالى وبديع خلقه وكمال حكمته، استشعارا لعظمتهما في ذاتهما، ومن ثم استشعارا لعظمة الخالق المُقسِم بهما جلّ وعزّ، ليكون هذا وذاك سبيلا إلى بيان عظمة المُقسم عليه الذي سيأتي، وجديته وأهميته، وإلى مضاعفة الشعور بالتشوّق إلى ذكره، وإلى تعميق اليقين بتحققه.

ثانيا: جرى نسق المقسم بهما وتواليهما في الآيات بتقديم ﴿الضُّحَىٰ﴾ على ﴿اللَّيْلِ﴾، وفي نسق المقسم بهما على هذا الترتيب إشارة إلى معناهما الرمزي؛ فقد أشار بعض العلماء إلى كون لفظة ﴿الضُّحَىٰ﴾ في صدر هذه السورة إيماءً إلى (الوحي) ونزوله ونوره وهداه، وكون لفظة ﴿اللَّيْلِ﴾ بعده إيماءً إلى احتباس الوحي وإبطائه. قال ابن القيّم في هذا المعنى: "فتأمل مطابقة هذا القسم ــ وهو نور

الضّحى الذي يوافي بعد ظلام الليل ــ للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه "ودّع محمداً ربه"، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه"(١)، ولذلك أقسم بهما دون سواهما على نفي هذين الخبرين، ومن هنا فقد جاء نسق المقسم بهما وترتيبهما في جملة القسم الإنشائية على هذه الصورة؛ على نسق ما يرمزان إليه وعلى ترتيبهما في الزمن وفي وجودهما في الواقع التاريخي، ولو نُقِض نسق المقسم بهما وترتيبهما لتلاشت هذه الدلالات البيانية.

ثالثا: جاءت عبارة ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ التي استهلّ بها عجز الجملة القسمية نظيرا دلاليا ــ في النسق والترتيب والتوالي ــ لعبارة: ﴿الضُّحَىٰ﴾ التي استهل بها صدر الجملة القسمية، وجاءت عبارة: ﴿مَا قَلَىٰ﴾ التي ختم بها عجز الجملة القسمية نظيرا دلاليا ــ في النسق والترتيب والتوالي ــ لعبارة: ﴿اللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ التي ختم

(١) التبيان في أيمان القرآن، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيّم الجوزية، تحقيق: عبدالله بن سالم البطاطي، مطبوعات: مجمع الفقه الإسلامي، جدة، تمويل: مؤسسة: سليمان بن عبدالعزيز الراجحي الخيرية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، د. ط. ص ١١٠، وانظر: التفسير الكبير ٣١: ٢٠٦، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٨، والتفسير البياني للقرآن الكريم ص ٢٦ ــ ٢٨.

بها صدر الجملة، وهكذا جاء المعنيان في عجز الجملة القسمية الكبرى منسوقين على المعنيين في صدرها، مرتّبين على ترتيبهما، متواليين على تواليهما، وذلك مراعاة لعلاقة التشاكل الدلالي العميق القائم بين الطرفين، إذ من البيّن أنّ التوديع يشاكل ﴿الضُّحَىٰ﴾ ويلائمه من جوانب عدة، وأن القلى يشاكل ﴿ اللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ويلائمه من جوانب عدة، وتضمّن هذا النسق الدلالة على تلك العلاقة وتصويرها والتعبير عنها، ومن ثمّ الدلالة على ديمومة ما أُقسِم عليه واستغراقه وجهي الزّمن، قال صاحب أضواء البيان: "أقسم تعالى بالضحى والليل هُنا فقط؛ لمناسبتهما للمقسم عليه، لأنهما طرفا الزمن وظرف الحركة والسكون، فإنه يقول له مؤانسا: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ لا في ليل ولا في نهار"(١).

رابعا: جاء نسق المعنيين في جواب القسم بتقديم (نفي التوديع) في الترتيب على (نفي القلى) قائما على ترتيب العبارة المزعومة الدّارجة في السياق الخارجي؛ إذ قالوا: (ودّعه ربّه وقلاه) لحكاية تلك العبارة على ترتيبها الذي وردت به على ألسنهم، ثم على ترتيب الأغلب في شأن الفراق بين الأصحاب والرفقة ورحيل بعضهم عن بعض؛ فإنه يكون وداعا في الغالب الأعمّ، وهجرا في الأقلّ الأخصّ، وكذلك على ترتيب ما هو أولى في فراق الأصحاب، وما هو أصلٌ

(١) أضواء البيان ٧: ٣٠٥، وانظر: فتح القدير ٤: ٣٢٠٢.

في باب الرّفقة؛ إذ الوداع ــ بما يدلّ عليه من اجتماع سابق وقرب وألفة ومودّة ــ هو الأولى بهم والأليق بحالهم، وهو الأصل في هذا الباب، والهجر ــ بما يصحبه من تباعد وجفوة، وربما قطيعة وكراهية وتباغض ــ عمل لا هو بالأولى ولا بالأليق، ولا هو بالأصل في باب الصحبة.

خامسا: جاء نسق جملة جواب القسم والجملة المعطوفة عليها على هذه الصورة المخصوصة من وصل الخبرين الماضيين المنفيين بـ ﴿وَ﴾، وعدم الفصل بينهما بفاصلة ولا بعلامة وقفٍ؛ على خلاف ما وقع من الفصل بالوقف بين المقسم بهما في صدر الجملة القسمية؛ فدُلَّ بتلازمهما هذا في الكلام، وباتصالهما في نسقه، وتواليهما بلا فصل على تلازمهما في الزمن، وعلى تلازمهما في الواقع التاريخي الخارجي الذي ادُّعيا فيه، وعلى اتصالهما وترافقهما في الوجود في كلام الناس المتداول قبل أن يكونا معنيين خبريين ماضيين منفيين في صدر هذه السورة الكريمة، كما دُلّ بذلك على تساوي المعنيين في النفي، وعلى تساويهما في وقوع القسم المضاعف المتقدّمِ على كلّ منهما ــ على حدة ــ لتأكيد نفيه على المستوى ذاته من التأكيد.

سادسا: مع اتصال المعنيين في جواب القسم وعدم الفصل بينهما؛ فإنّ استقلال كلّ واحد منهما بأداة النفي نفسها في خاصته قد

جاء للدلالة على كون كل واحد من المعنيين مخصوصا بالذكر لذاته، مقصودا بوقوع القسم عليه تحديدا لتوكيد نفيه.

سابعا: مجيء المقسم به ثنائيا على هذه الصورة ﴿وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ أفاد الجملة القسمية المركبة كلها انسجاماً وتشاكلا في النسق والترتيب من حيث المقابلة بين المقسم به الثنائي في صدر الجملة القسمية والمقسم عليه الثنائي في عجزها ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، كما حقّق توازنا صوتيا بين صدر الجملة القسمية وعجزها.

الثالث: نسق المعنى الكلي الرئيس للجملة القسمية في استهلال معاني السورة

يشكّل المعنى المركب في هذه الجملة القسمية المتمثّل في: (القسم بالضحى وبالليل في حال سجوه على نفي وقوع التوديع والقلى من الله تعالى لنبيه) المعنى الرئيس الأوّل من معاني السورة الكريمة، وقد دُلَّ بوقوعه في هذا الموضع صدرا في نسق معاني السورة وترتيبها على كونه موضع العناية والأهمية والاهتمام في جملة معاني السورة الكريمة؛ لأنّه إنما يستهلّ الكلام ــ في المواضع والمقامات التي لا مقدّمات فيها ــ بما هو أهمّ، ويبدأ بما هو أولى بالعناية؛ كما ذكر سيبويه في الكتاب، وأكّد عليه غيره(١)، وذلك هو

(١) قال سيبويه في سياق الكلام عن تقديم المفعول به في كلام العرب: "كأنهم إنما يقدّمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهُمْ ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمّانهم

الوجه في موضع هذا المعنى؛ لأنه يتعلّق بخبرين؛ هما الخبران الحاضران في المقام القائم في لحظة الخطاب الحالية، وهما الشأن الدّارج في السياق الخارجي المرتبط بحال المخاطب الأصلي القائم في لحظة الخطاب، وهما يمثلان لبّ القضية التي نزلت السورة أصلا لمعالجتها(١)، وعقدت من أجلها. ومما يدلّ على أهمية هذا المعنى، وعلى كونه مركز الثقل في السورة؛ أنّه قد انجرّت في إثره معاني السورة الثمانية، ونسقت كلها عليه، حتّى كأنه الأبُ الأعلى لها جميعا، ومع أهمية بقيّة معاني السورة ــ كلّ في مكانه الذي هو فيه ــ لا يمكن لأيّ معنى آخر من معاني السورة أنْ يوازيه في الأهمية؛ ولا أنْ يقوم مقامه في مستهلّ السورة، ولا أنْ يحل في مكانه من النسق والترتيب، ولا أنْ يكون من معاني السورة بهذه المنزلة، ولأنّه في ذاته بهذه الأهمية، ولأنّه من بقية معاني السورة بهذه المنزلة؛ استُهِلّت به السورة، وجاء في ترتيب معانيها أوّلا.

فهذا هو نسق هذه الجملة القسمية الكبرى من جهة طرفيها، ومن جهة معانيها الجزئية، ومن جهة موضع معناها الكلي المركب

=ويعنيانهم": راجعه في: الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، عالم الكتب، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ١: ٣٤، وقد نقله عنه وأكّد عليه الشيخ عبد القاهر الجرجاني، راجعه في: دلائل الإعجاز ص ١٠٧.

(١) كما اتضح ذلك في أسباب نزول السورة

الرئيس ضمن معاني السورة، وتلك هي مسوغات ذلك النسق على المستويات الثلاثة وعلاقاته ولطائفه البيانية، وإذا أريد وضع اليد على حقيقة سائر هذه المعاني اللطيفة التي تمّ بيانها؛ فليَنقَض ــ افتراضيّا ــ النسق والترتيب في طرفي هذه الجملة وفي معانيها الجزئية وفي موضعها؛ ثم ليُنظَر كيف سينحل هذا الإحكام في النسق والترتيب؟، وكيف سيزول ما يقوم عليه من علاقات؟، وكيف سيتلاشى ما ينطوي عليه من لطائف البيان ودقائقه؟، وكيف سيختفي ما يتسم به من انسجام وتناسب وتشاكل وتلاؤم بياني بالغ الجمال والكمال؟.

المعنى الثاني: الإخبار بأنّ ما يأتي من شأن رسوله خير له مما مضى.

تأتي الآية الرابعة من السورة الكريمة ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ مركبّة من جملة اسمية خبرية مثبتة واحدة، مضمونها (خبر مؤكد من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بكون الآخرة خير له من الأولى)، وقد اختلف العلماء في تحديد المقصود بكل من (الآخرة والأولى)[1]، فقيل: المقصود بالآخرة الدار الآخرة، والمقصود بالأولى الدار الدينا،

(١) انظر: المحرر الوجيز ٥: ٤٩٣، والتسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤٩٠، والبحر المحيط ٢١: ٣٩٤، وتفسير القرآن العظيم ٨ : ٣٨٠٠، ونظم الدرر ٨: ٤٥٥ ــ ٤٥٦، وروح المعاني ١٥: ٣٧٧.

وقيل: المراد بـ (الآخرة) كل أمرٍ تالٍ من أموره ﷺ، فإنّه ما زال ـ في رقيّ ـ من خير إلى ما هو خير منه، والمراد بـ (الأولى) كل أمر سابق من أموره، وفي الآخرة بهذا المعنى ما بعد نزول هذه السورة، وفيها كذلك الدار الآخرة، وفي الأولى ما قبل نزولها، وفيها الدار الدنيا، و(الآخرة والأولى) بهذا المعنى الأخير أعمّ وأتمّ وأكمل، وأليق بالمقام وبحال المخاطب وما يفترض أن تكون عليه نفسه ﷺ من التشوّف والتطلع لمعرفة حاله مع الوحي والدعوة في المستقبل، ثم إنّ هذا المعنى أكثر انسجاما مع طابع الإطلاق والانفتاح في دلالة صيغتي (الأخرة والأولى) من جهة أنّ (أل) في كلّ منهما للجنس على إطلاقه(١)، لا للتعريف ولا للعهدة، وأنّ أيّا من اللفظتين لم تقيّد بقيد. فهذا في شأن المعنى الأصلي في هذه الآية الكريمة، أمّا في شأن علاقة هذا المعنى بالمعنى الذي سبقه، ومدى استقلاله عنه أو تبعيته له، وسرّ وجوده في هذا الموضع من نسق معاني السورة وترتيبها؛ بعد المعنى الذي سبقه؛ فذلك هو ما يمكن استخراجه من خلال بيان نوع الوصل في صدر الآية، وبيان موقع الجملة الإعرابي؛ من حيث كان الإعراب فرعا على المعنى، وقد تبيّن في المستوى السابق الأوجه الإعرابية التي ذكرت في الـ ﴿وَ﴾ في

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٠، ٣٥١، وراجع إعراب هذه الآية في النسق النحوي.

صدر الآية الكريمة؛ من حيث كونها للعطف أو الاستئناف، ومن ثم في الموقع الإعرابي للجملة التي تتركب منها الآية؛ من حيث كونها معطوفة على جواب القسم، أو واقعة في جواب قسم آخر مقدّر، أو مستأنفة، وقد أشير هناك إلى كون الوجه الراجح في نوع الـ ﴿وَ﴾ أنها حرف عطف واستئناف، وأنّ الجملة بعدها مستأنفة، معطوفة على الجملة القسمية كلها[1] ــ من باب عطف القصة على القصة ــ ابتدائية مثلها[2]، وهذا يقتضي أنّ هذا المعنى الذي عبّر عنه بهذه الآية معنى ابتدائي مستأنف، رئيس، مستقلّ عن المعنى الإنشائي المركب السابق، والنظر إلى الـ ﴿وَ﴾ في صدر هذه الآية على أنها حرف استئناف، والنظر إلى هذه الجملة على أنها ابتدائية مستأنفة، والنظر إلى معناها على أنه معنى رئيس أساسيّ، مستقل عن المعنى السابق ليس مجرّد احتمال نحويّ اختياري رجّحه أكثرهم؛ بل هو الوجه الأليق بيانيا بهذا المعنى، وبالمقام وبالحال، وبسياق الكلام؛ حتى يكاد يكون هو الوجه في هذا الموضع دون سواه، وذلك لمسوغات بيانية منها:

---

(١) انظر: المصدر نفسه ٣٠: ٣٥٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

(٢) انظر: المغني ٤٤٠، وروح المعاني ١٥: ٣٧٨.

أوّلا: استهلّت الجملة ذاتها بـ ﴿لَ﴾ الابتداء والتوكيد على ما ذهب إليه أكثر من أعربها من العلماء[1]، وإذا صحّ أنها للابتداء امتنع كونها الواقعة في جواب القسم المذكور أو المقدّر؛ ومن ثمّ دُلّ بها على الاستقلال المعنوي والإعرابي لهذه الجملة عمّا قبلها، وعلى كون هذه الجملة ابتدائية مستأنفة، معطوفة على الجملة القسمية كلها عطف استئناف، وإذا صحّ ذلك؛ فمعناه أن المعنى الذي عبّر بهذه الجملة عنه هو معنى ابتدائي مستأنف، ومن ثمّ فهو معنى أساسيّ رئيس قائم برأسه، مستقلّ عن المعنى الإنشائي المركب الذي سبقه.

ثانياً: القول بأنّ هذه الجملة معطوفة على جواب القسم السابق أو واقعة في جواب قسم آخر مقدّر يقتضي أن يكون هذا الخبر مقسما عليه، وأنْ تكون ﴿لَ﴾ في قوله: ﴿لَلْآخِرَةُ﴾ (لام) الواقعة في جواب القسم، ومن ثمّ جاء الوصل بـ ﴿وَ﴾ الذي يقتضي الاشتراك في الحكم، والحقّ أنّ حكم الخبر في هذه الجملة يختلف عن حكم الخبرين الآنفين في جواب القسم، وذلك أنّ المعنى المعبّر عنه بهذه الجملة ليس من المعاني التي قامت حولها دعوى المشركين، إذ لم يرد في عبارتهم: "ودّعه ربه وقلاه" ولا في عبارة أخرى، ومن ثمّ

---

(١) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٨، وإعراب لامية الشنفرى ص ١٠٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٠، ٣٥٢، وأضواء البيان، ٧: ٣١٠، وإعراب القرآن الكريم وبيانه ١٠: ٥٠٩.

فليس هذا المعنى ردّا على إنكار للمشركين، ولا هو إبطال لزعم زعموه حتى يقال في الجملة إنها معطوفة على جواب القسم، أو يقال إنها في جواب قسم آخر مقدّر. والمخاطب بهذا الخبر هو رسول الله ﷺ خاصة دون غيره؛ والظاهر من حاله ومما علم عنه في ذلك المقام؛ أنه كان خالي الذهن من هذا الخبر، لا يعارض فيه ولا ينكره، ولا يدعي خلافه، ولا حتى يتردد فيه أو يشك، ولا يسأل عنه، وليس هذا من حاله. قال ابن عاشور في شأن التوكيد بالقسم في الجملة التي سبقتها: (التأكيد تعريض بالمشركين، وأمّا رسول الله ﷺ فلا يتردد في وقوع ما يخبره الله بوقوعه)[1]، ومن هنا يتضح أن حمل الجملة على العطف على أيّ من الوجهين ضعيف جدا، وأنّه ليس هناك وجه لإيراد هذا الخبر في سياق التوكيد الإنكاري الذي يستلزم القسم؛ حتى يسُوْغ أن تعطف الجملة على جواب القسم، أو يُدّعى فيها أنها جواب لقسم مقدّر، وحمل الجملة إعرابيا على أيّ من هذين الوجهين يعني أن يُجعَل الخبر في سياق توكيد إنكاري استلزم القسم، واستلزم (لام) الواقعة في جواب القسم، ومن يقول بهذا؛ فإنه في الحقيقة يحكم ــ من حيث لا يدري ــ إمّا بأنّ هذا المعنى المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ كان موضع إنكار من المشركين أو أنهم قد زعموا خلافه؛ فجاءت هذه الآية لإثباته

(١) التحرير والتنوير ٣٠: ٣٤٨.

ولإبطال دعواهم، وهذا حكم لا دليل عليه، وإمّا بأنّ المخاطب الذي هو رسول الله ﷺ كان منكرا لهذا الخبر إنكارا شديدا استلزم التوكيد بالقسم المضاعف الظاهر، أو بقسم آخر مقدّر، وبـ (اللام) الواقعة في جواب القسم الظاهر أو المقدر، وإمّا بأنه ﷺ قد نزّل منزلة المنكر لهذا الخبر إنكارا شديدا، وكلا الحكمين لا دليل عليه، ولا يحتمله المقام، ولا يليق بحال رسول الله، ولا يسوغه حسن البيان، ومن هنا فلم يبق إلا أن يُقال: إنّ ﴿لَ﴾ في صدر هذه الجملة ابتدائية، وإنّ الجملة مستأنفة معطوفة على الجملة القسمية، ابتدائية مثلها، وإنّ المعنى الذي عبّر بهذه الجملة عنه معنى أساسي من معاني السورة، رئيس قائم برأسه، مستقلّ عن المعنى الإنشائي المركب الذي سبقه، ابتدائي مستأنف، وهذا يؤكّد ما تمّ بيانه في العنصر (أوّلا) الآنف.

فإن قيل: ما دامت هذه ﴿لَ﴾ لام الابتداء لا (لام) الواقعة في جواب القسم؛ وما دام هذا الخبر غير واقع في جواب القسم؛ لأنه ليس موضع زعم المشركين ولا دعواهم كالخبرين السابقين، ولا هو موضع إنكار أو تساؤل أو شك من المخاطب؛ فما الداعي البياني إلى الابتداء بهذه ﴿لَ﴾؟، وما فائدة توكيد الخبر بها؟، فالجواب من وجهين:

الأول: أنّ ﴿لَ﴾ هنا هي في الأساس لام ابتداء؛ جيء بها للدلالة على ابتدائية الجملة، ولتوكيد كونها مستأنفه، مستقلة بمعناها عمّا سبقها، ثم إنها اصطحبت هنا ما فيها من دلالة التوكيد.

الثاني: أنّ ﴿لَ﴾ التوكيد هذه قد حسُنت بها العبارة واستقام بها اللفظ، وجاد بها المعنى؛ لأنّ السياق المجاور لهذه الجملة من الأمام سياق خبريّ مؤكد تأكيدا شديدا، ولو نُزِعَت ﴿لَ﴾ التوكيد هذه من مكانها، وجاءت الجملة ــ بعد الجملة القسمية ــ هكذا (والآخرة خير لك من الأولى)؛ لنبا الكلام عن مجراه، ولاختل معناه، ولتفاوت مستواه من جهة درجة توكيده، ولذهب تناسبه وتناغم أجرائه، ولتضمن ذلك الإيماء إلى عدم أهمية المعنى الثاني، وإلى ضعف العناية به، ولتحوّل إلى خبر هامشي عادي بارد؛ تنزه الله عن ذلك وكتابه.

ثالثا: أنّ حمل هذا المعنى على أنه معنى رئيس ابتدائي مستأنف، مستقل عن المعنى الذي سبقه، وعلى أن الجملة ابتدائية استئنافية؛ معطوفة على الجملة القسمية كلها عطف استئناف، من باب عطف القصة على القصة؛ أليق بطبيعة كل من المعنيين وسماته، وذاك لأنّ المعنى الثاني مختلف عن المعنى الذي سبقه في صورته النحوية وفي مضمونه وفي دلالته الزمنية وفي الغرض منه، وفي السياق الخارجي الذي ينتمي إليه، فهو في صورته خبر

مثبت مؤكد غير مركّب، وفي مضمونه إخبار بأنّ (كل آتٍ من شأنه ﷺ خير له مما سبق من ذلك الشأن)، وهو معنى ذو دلالة زمانية مستقبلية، وغرضه ــ كما يدل على ذلك السياق ــ بيان هذا الخبر لمحمد ﷺ، والبشرى له بذلك المعنى، والتوكيد به للمعنى الذي سبقه، ثم هو إخبار بأمر غيبي ينتمي إلى سياق ما سيأتي في المستقبل من شؤونه ﷺ، في حين جاء المعنى السابق في صورة جملة قسمية إنشائية، مضمونها (القسم على نفي خبري التوديع والقلى)، ودلالتها الزمنية تتعلق بالماضي إلى وقت زمن التكلّم، والغرض منها الردّ على المشركين، وتكذيبهم، وإبطال دعواهم، وإزالة ما كان وقع في نفس رسول الله ﷺ من الوحشة بانقطاع الوحي ومن القلق بشأنه، ومعنى هذه الجملة ينتمي إلى سياق ما مرّ وما هو قائم وما هو معروف شائع من حال رسول الله ﷺ إلى لحظة التكلّم، وبهذا يتضّح تماما أن المعنى الثاني غير داخل في صورة المعنى الأول ولا في مضمونه ولا في دلالته الزمنية ولا في غرضه، ولا ينتمي إلى سياقه، وعليه؛ فإنّ المعنيين مختلفان اختلافا يجعل عطف المعنى الثاني على جواب القسم، أو جعل المعنى الثاني في جواب قسم جديد مقدّر قلقا؛ ينبو بالمعنى الثاني عن وجهه، ويخرج بالكلام عمّا يقتضيه حسن البيان.

تأسيسا على ذلك؛ فإن هذا المعنى معنى رئيس مستأنف ابتدائي مستقل عن المعنى السابق، وهو يمثل المعنى الرئيس الثاني في السورة، وكان مجيئه في نسق المعاني الرئيسة وفي ترتيبها وتتابعها بعضها في إثر بعض؛ ثانيا بعد المعنى الأوّل على أجود ما يقتضيه حسن البيان، وعلى أدقّ ما تستلزمه جودة نسق الكلام وترتيب أجزائه. ذكر الألوسي عن غير واحد من الأجِلَّة في شأن ارتباط هذه الآية بما قبلها، وترتيبها مما سبقها: "لما نزل ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ حصل له عليه الصلاة والسلام به تشريف عظيم، فكأنه ﷺ استعظم ذلك، فقيل له: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.."[1]، ثم هو مع ذلك خروج من الكلام عن الواقع القائم في الزمن الحاضر وما سبقه من حال محمد ﷺ مع الوحي، وبيان الأمر في شأنه؛ إلى الكلام في شأنه المستقبلي وفي حاله مع كل أمر آتٍ من أموره، وهو كذلك؛ خروج من نفي خبري التوديع والقلى المزعومين وتكذيب المشركين، إلى الكلام عن بشرى عظيمة آتية له ﷺ. ومن هنا فإنه إذا كان استهلال السورة الكريمة بالمعنى الأول هو ما اقتضاه حسن البيان، وما كان ليصلح الابتداء بغيره من معاني السورة؛ فإن إتباعه بهذا المعنى تحديدا هو ما اقتضاه حسن البيان أيضا، وجودة نسق المعاني

(١) روح المعاني ١٥: ٣٧٨، وانظر: التفسير الكبير ٣١: ٢٠٩.

وترتيبها، وما كان يمكن أن يحلّ في هذا الموضع من النسق والترتيب بعد المعنى الأول غيره من معاني السورة.

المعنى الثالث: الإخبار بالعطاء الآتي لرسول الله وإرضائه

تأتي الآية الخامسة من السورة الكريمة؛ مركبة من جملتين خبريتين مثبتتين، تنطوي كلّ منهما على معنى جزئي؛ الأولى: ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾، والثانية: ﴿فَتَرْضَىٰ﴾، وصورتهما معا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، وبالتدقيق في هذه الآية الكريمة من جهة نسق معنييها الجزئيين في داخلها، ثم من جهة نسق معناها الكلي في سياق المعاني الرئيسة في السورة؛ يتضح جليّا أن النسق والترتيب فيها قد جاء على مستويين متكاملين، لكل منهما علله ومسوغاته، وفي كل منهما لطائفه وأسراره. هذان المستويان هما:

الأول: نسق المعنيين الجزئيين في الآية

يظهر ــ لأوّل وهلة ــ أن الجملة الأولى: ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ جملة مكتملة مستقلة بمعناها، لأنها في صورتها النحوية مكتملة الأركان؛ فعلا وفاعلا ومفعولا به ومؤكدات وقيود، ويظهر ــ بناء على ذلك ــ أنه كان يمكن الوقوف على هذا المعنى بالفاصلة أو بعلامة وقف للدلالة على أنّ الجملة قد اكتملت، وعلى أنّ معناها قد تمّ، غير أنّ الآية لم تغلق بالفاصلة على هذا المعنى، ولم تظهر فيها علامة وقف تدل على استقلال المعنى الأوّل في الآية عن

المعنى الثاني فيها؛ بل أتبعت مباشرة بجملة ﴿تَرْضَىٰ﴾، وهي جملة أخرى، الظاهر ــ لأول وهلة ــ أنها ــ هي أيضا ــ جملة قائمة برأسها، مستقلّة بمعناها، لأنها مكتملة في صورتها النحوية فعلا وفاعلا ومفعولا به مقدرا، لكنّ وصل الجملتين بحرف الـ ﴿فَ﴾ خاصة، ومجيئهما على هذه الصورة المخصوصة من النسق والترتيب دلّ على أن بين المعنيين ومن ثم بين الجملتين تلازما بيانيا عميقا اقتضى تجاورهما، وحال دون الفصل بينهما، وأوجب مجيئهما على هذه الصورة ــ تحديدا ــ من النسق والترتيب والتوالي، واستلزم الوصل بينهما بحرف الـ ﴿فَ﴾ دون غيره من حروف العطف. وثابت ــ عند التدقيق والتحقيق القائمين على دقائق البيان ولطائفه؛ لا على التوجيهات النحوية الصناعية وصرامتها ــ أنّ حرف الـ ﴿فَ﴾ ــ في باب عطف الجمل؛ كما هو في هذا الموضع تحديدا وما يشبهه ــ مميّز بدلالته على العطف والترتيب والتعقيب والسببية والعلّة والجزاء معاً، وقد أشار بعض العلماء إلى هذا الجانب في دلالة الـ ﴿فَ﴾[1]، ولا تعارض بين دلالاته هذه على الحقيقة؛ بل دقّة في التعبير، وتكامل بياني ناصع رائق، ومن هنا؛ فإنه لما كانت الجملتان قد وصلتا بحرف الـ ﴿فَ﴾؛ وربط به بين معنييهما في الآية بدلالاته هذه؛ دلّ ذلك على أنّ علاقة التلازم

(١) راجع إعراب هذه (الفاء) في موضعه من النسق النحوي.

القائمة بين هذين المعنيين هي علاقة عطف وترتيب وتعقيب وسببية وجزاء في آن واحد؛ وبان أنّ المعنيين ــ لشدة ما بينهما من التلازم ــ في حكم معنى واحد؛ حتى لا يمكن الفصل بينهما دون أن يختل معنى الآية، وبان أنّ قوة علاقة التلازم بينهما في درجة قوّة علاقة التلازم بين القسم وجوابه، وبين الطلب وجوابه، وبين الشرط وجزائه، أو قريب منها. وإذا اتضح هذا المعنى، وكان الأمر فيه على ما ذُكِر؛ فما العلّة البيانية التي قامت بسببها علاقة التلازم بين المعنيين والتي اقتضت وصل الجملتين بحرف الـ ﴿فَ﴾، واقتضت مجيئهما على هذه الصورة من النسق والترتيب والتوالي داخل الآية الكريمة؟. إن التدقيق البياني العميق في هذا الشأن يدلنا على أن تلك العلة البيانية تتمثل في: أنه لمّا لم يُذكر في الجملة الأولى المفعول به الثاني،؛ فيقال: (ولسوف يعطيك ربّك كذا)، ومن ثمّ لم يتبيّن في المعنى الأول ماهية ذلك العطاء أو نوعه أو مقداره أو حجمه، ولم يقيد بقيد؛ كان في المعنى الأوّل انفتاح دلاليّ قاد إلى قدر من الغموض والإبهام في طبيعة هذا العطاء، وإلى نقص في المعنى يجعل المخاطب ينتظر بيان هذا العطاء أو تقييده على أية صورة كانت، فنسق على هذا المعنى ــ بحرف الـ ﴿فَ﴾[1] ــ بوظائفها البيانية تلك:

(١) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٩.

ــ المعنى الثاني ﴿تَرْضَىٰ﴾، وأتبع به؛ فاندمج المعنيان في الآية في معنى كلّي واحد هو: (إخبار الله تعالى نبيه ﷺ بأنه سوف يعطيه مستقبلا إلى أن يرضى، أو حتى يرضى، أو إلى حدّ الرضا)، فتحقق بهذا الاندماج إغلاق الانفتاح القائم في العطاء في المعنى الأول، وإزالة غموضه، وتحديد درجته، وبيان حدّه، من خلال المعنى الثاني، ولو لم يذكر المعنى الثاني، أو وصل بالمعنى الأول بغير حرف الـ ﴿فَ﴾؛ لما تحقق هذا الاندماج بينهما، ولما كان هذا التلازم في التعبير عن المعنى الكلي للآية، ولمَا قُيّد ذلك الانفتاح في المعنى الأول، ولما أزيل غموضه، ولما بانت درجة ذلك العطاء الآتي.

الثاني: نسق المعنى الكلي الرئيس للآية في إطار المعاني الرئيسة للسورة

اتضح آنفا كون المعنيين الجزئيين في الآية الكريمة قد اندمجا ــ من جهة علاقة التلازم البياني العميق القائمة بينهما أصلا، ثم من جهة الوصل بينهما ــ المبني على تلك العلاقة ــ بحرف الـ ﴿فَ﴾؛ اندماج عطف وتعقيب وترتّب وسببية وجزاء في معنى كلي واحد متلازم الجزأين، وبقي الوقوف على معنى الآية الكلي لاستجلاء مدى استقلاله عمّا سبقه أو تبعيته له، وعلاقته به، وسرّ

وجوده في هذا الموضع الذي هو فيه من النسق والترتيب بعد المعنى الذي سبقه.

أمّا في شأن استقلال هذا المعنى عن المعنى الأساسي الرئيس الثاني الذي سبقه من عدمه؛ فمن الملاحظ أنّ بين هذا المعنى الذي هو (إخبار الله تعالى نبيه ﷺ بأنه سوف يعطيه مستقبلا إلى أن يرضى، أو حتى يرضى، أو إلى حدّ الرضا)، والمعنى السابق الذي هو (إخبار الله تعالى نبيه بكون كل شأنٍ آتٍ من شؤونه خير له مما سبقه) اختلافا بيّنا؛ من حيث كان كلّ منهما خبرا عن شأن مختلف ــ كما هو بيّن من مضمون كلّ منهما ــ مستقلّا عن الآخر في الدلالة، غير مركّب معه كتركيب معاني الجملة القسمية، ولا متلازم معه كتلازم معنيي هذه الآية، الأمر الذي جعل كلّ واحد من المعنيين يظهر في مكانه معنى رئيسا أساسيا مستقلا عن الآخر، وهذا الاختلاف بين المعنيين والاستقلال في كل منهما عن الآخر هو الذي جعل كلا منهما يرد ضمن جملة كلية مستقلة، في آية مستقلة، مفصولة عن الآية الأخرى بالفاصلة القرآنية؛ تناسقا مع ما بينهما من اختلاف، وما فيهما من استقلال، وتصويرا لذلك. وأمّا عن علاقة هذا المعنى الرئيس بالمعنى الرئيس الذي سبقه، فمن الملاحظ أنّ بينهما ــ وإن افترقا من جهة المضمون، واستقل كلّ منهما عن الآخر في العبارة ــ وجوه تناسب عديدة، فالخبران متناسبان في

الصورة النحوية من حيث جاء كلّ منهما في جملة اسمية خبرية مثبتة مؤكدة، ومتناسبان في الغرض من حيث كان الغرض في كلّ منهما إخبار محمد ﷺ بمضمون ذلك الخبر، وتبشيره به، وتوكيد ما سبق ذلك الخبر من أخبار، ومتناسبان من حيث دلالتهما الزمنية المستقبلية، ومتناسبان في السياق النصّي من حيث ورودهما معاً في سياق ذكر البشائر، ومتناسبان في السياق الخارجي من حيث أنّهما ينتميان معا إلى سياق ما هو آتٍ من شؤونه ﷺ، وهذه التناسبات بين المعنيين في الصورة والغرض والدلالة الزمنية والسياقين النصي والخارجي سوّغت بيانيا عطف الجملة الكلية: ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ على الجملة التي سبقتها: ﴿لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، ومن ثمّ عطف معنى الجملة الثانية على معنى الجملة الأولى ــ بحرف الـ ﴿و﴾ تحديدا ــ عطف استئناف، للدلالة على علاقة التناسب والتجاور والتآلف هذه بين المعنيين. أمّا في شأن السرّ البياني الذي سوغ وجود هذا المعنى الثالث الرئيس المستقل في الموضع الذي هو فيه بجوار المعنى الثاني الذي سبقه تحديدا؛ فذلك يعود إلى تلك التناسبات القائمة بين المعنيين من تلك الجهات التي أشير إليها آنفا. وأما في شأن العلة البيانية التي اقتضت وجود هذا المعنى في الموضع الذي هو فيه من نسق معاني السورة وترتيبها وتواليها؛ بعد المعنى الذي سبقه تحديدا؛ فهي تكمن في أنه قد انتقل

الكلام من الإخبار بالعام المطلق غيرِ بَيّنِ النوع والمقدار في المعنى السابق، إلى الإخبار بالخاصّ المقيّد بَيّن النوع والمقدار(١) في هذا المعنى، وخرج من البشرى بذلك العام المطلق إلى البشرى بهذا الخاصّ المقيد، وانتقل من التوكيد بذلك العام إلى التوكيد بهذا الخاصّ، لذلك جاء المعنيان على هذه الصورة من الترتيب. وهذا أداء بياني عال ــ في شأن نسق المعاني وترتيبها وتواليها ــ على جانب عظيم من الدقة والجودة والجمال والإحكام، وما كان ممكنا أن يحلّ معنى آخرُ من معاني السورة في موضع هذا المعنى من النسق والترتيب.

المعنى الرابع: كون الله تعالى وجد محمدا يتيما فآواه

تأتي الآية السادسة من السورة الكريمة، مركبة من جملتين، تنطويان على معنيين جزئيين الأولى: إنشائية استفهامية استفهام تقرير صورتها: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾، والثانية: خبرية مثبتة صورتها: ﴿فَآوَىٰ﴾، وصورة الجملتين معا: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾. ويأتي نسق هذه الآية ــ كالآية السابقة ــ على مستويين:

الأول: نسق المعنيين الجزئيين داخل الآية

استهلت الآية الكريمة بالجملة الأولى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾، والظاهر ــ لأول وهلة ــ أن هذه الجملة مكتملة، مستقلة بمعناها؛

(١) انظر: التفسير الكبير ٣١: ٢١٠.

لأنها ــ في صورتها النحوية ــ مكتملة الأركان؛ لكنها أتبعت ــ على الفور ــ بجملة ﴿آوَىٰ﴾، وهي جملة أخرى، الظاهر ــ لأول وهلة ــ أنها هي أيضا جملة مستقلة قائمة برأسها، وأنها مكتملة تامة في معناها، لأنها مكتملة في صورتها النحوية، لكن مجيء الجملتين متجاورتين في الآية على هذه الصورة من النسق والترتيب؛ وبلا فصل بين الجملتين؛ دلّ على أن بين المعنيين تلازما بيانيا اقتضى تجاور الجملتين في الموضع، وحال دون الفصل بينهما بوقف أو فاصلة، وأوجب مجيئهما على هذه الصورة ــ تحديدا ــ من النسق والترتيب والتوالي، واستلزم الوصل بينهما. ولبيان هذا التلازم القائم بين المعنيين وبيان نوعه، وتصويره والتعبير عنه؛ جاء وصل الجملة الثانية بالجملة الأولى بحرف الـ ﴿فَ﴾ تحديدا، فدلّ ذلك على أن علاقة التلازم القائمة بين المعنيين هي علاقة عطف وترتيب وتعقيب وسببية وجزاء، وبان أنّ المعنيين في حكم معنى كلّي واحد متكامل، وبان أن علاقة التلازم بينهما متينة إلى درجة أنه لا يمكن الفصل بينهما بعلامة وقف أو فاصلة قرآنية، كما لا يمكن أن يحذف أحدهما دون أن يختل معنى الآية ويذهب عن وجهه ويفقد غرضه والمقصد الذي جاء له، تماما كما هو الحال في الجمل القسمية والشرطية، وكما كان الحال في جملتي الآية السابقة، وهنا يُسأل: ما العلّة البيانية التي اقتضت تجاور هذين المعنيين الجزئيين في الآية

الكريمة، وقامت بسببها علاقة التلازم بين المعنيين، واقتضت وصل الجملتين بحرف الـ ﴿فَ﴾ تحديدا، ومجيئهما على هذه الصورة من النسق المتصل والترتيب والتوالي داخل الآية الكريمة؟. والجواب على ذلك؛ يتمثّل في أنّ الآية الكريمة قد بدأت بجملة الاستفهام: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾، ومع أنّ الجملة الاستفهامية قد جاءت في صورتها النحوية مكتملة الأركان؛ كما ذكر آنفا: استفهاما ونفيا وفعلا وفاعلا ومفعولا به أوّل ومفعولا به ثانيا؛ إلا أنّ دائرة الاستفهام التقريري لم تغلق بعد المعنى الأوّل، ومجال الاستفهام ما زال مفتوحا، وموضع العبرة في (أنْ وجد الله تعالى نبيه يتيما) لم يتحدد بعد، وما ترتّب على أنْ ألفى الله ــ تعالى ــ محمدا على هذا الحال لم يَبِنْ، وما أعقبه لم ينجلِ، ووجه الاستدلال لم يظهر بعد؛ ومن ثم كان في المعنى الأول ــ منظورا إليه وحده ــ نقص بيّن يجعل المخاطب ينتظر إكماله، وغموض يجعله ينتظر إيضاحه، وإبهام يجعله يطلب إزالته، فنُسِقَ على المعنى الأول مباشرة وأتبع في الترتيب المعنى الثاني الذي هو الخبر المثبت المعبّر عنه بجملة ﴿آوَىٰ﴾ بحرف الـ ﴿فَ﴾[1]، فاندمج المعنيان في الآية اندماج تلازم وتكامل تحقق به إغلاق ما في الاستفهام من انفتاح، وتحديد موضع العبرة في (أنْ وجد الله تعالى نبيه يتيما)، وبيان ما ترتّب على أن ألفى الله ــ تعالى

(١) انظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١٩.

ــ محمدا على هذا الحال، وظهور وجه الاستدلال. وكمل بهذا الاندماج بثاني المعنيين أولُهما، ووضح به غموضُه، وزال به إبهامُه، والتحم المعنيان في معنى واحد متلازم الطرفين، ومن الواضح تماما أنه لو لم يتجاور المعنيان، أو لم يذكر المعنى الثاني، أو لم يقعا على هذه الصورة من النسق والترتيب والتوالي في الآية، أو فصل المعنى الثاني عن المعنى الأول بفاصلة قرآنية أو وقف، أو لم يوصل بالمعنى الأول بحرف الـ ﴿فَ﴾ تحديدا؛ ما تحقق هذا الاندماج بين المعنيين، وما كان هذا التلازم، وما انغلق مجال الاستفهام، ولا بانت النعمة، ولا وضح وجه الاستدلال. فذلك هو السرّ البياني في وجود معنيي الآية إلى جوار بعضهما، وتلك هي العلة البيانية التي قامت عليها العلاقة بين هذين المعنيين داخل الآية، والتي اقتضت وصل الجملتين بحرف الـ ﴿فَ﴾، ومجيئهما على هذه الصورة الخاصة من النسق والترتيب والتوالي داخل الآية الكريمة.

الثاني: نسق المعنى الكلي الرئيس للآية في إطار المعاني الرئيسة للسورة

اتضح آنفا كون المعنيين الجزئيين في الآية المعبّر عنهما بجملتي ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ و﴿آوَىٰ﴾ قد اندمجا من جهة تجاورهما ونسقهما وترتيبهما، ومن جهة علاقة التلازم البياني العميق القائمة بينهما، ثم

من جهة الوصل بينهما ــ المبني على تلك العلاقة ــ بحرب الـ ﴿فَ﴾ تحديدا؛ اندماج عطف وتعقيب وترتّب وسببية وجزاء في معنى كلي واحد متلازم الجزأين، متضامّ الطرفين؛ مضمونه: سؤال تقريري للمخاطب: (عمّ إذا كان الله ــ تعالى ــ قد ألفاه في الزمن الماضي يتيما بلا أبٍ ولا أمٍّ فأواه)، واتضحت العلة البيانية التي اقتضت مجيء هذين المعنيين ــ في الآية ــ على هذه الصورة من النسق والترتيب والتوالي، وبقي الوقوف على معنى الآية الكلي لاستجلاء مدى استقلاله برأسه عن المعنى الذي سبقه أو تبعيته له، وعلاقته به، وسرّ وقوعه في هذا الموضع الذي هو فيه بعد المعنى الذي سبقه من نسق معاني هذه السورة وترتيبها وتواليها.

أمّا في شأن استقلال المعنى الكلّي الذي تضمنته هذه الآية عن المعنى الأساسي الرئيس الذي تضمنته الآية السابقة من عدمه؛ فمن البيّن أنّ بين المعنيين تباينات عديدة: من جهة الصورة النحوية التي جاء عليها كل من المعنيين، من حيث جاء المعنى في هذه الآية إنشائيا استفهاميا، في حين كان المعنى في الآية السابقة خبريّا مثبتا مؤكّدا. ومن جهة المضمون، من حيث جاء مضمون هذا المعنى سؤالا تقريريا للمخاطب: (عمّ إذا كان الله ــ تعالى ــ قد ألفاه في الزمن الماضي يتيما بلا أب ولا أمّ فأواه)، بينما كان مضمون المعنى الذي سبقه: (إخبار الله تعالى نبيه ﷺ بأنه سوف يعطيه إلى

أن يرضى، أو حتى يرضى، أو إلى حدّ الرضا). ومن جهة الغرض، إذ يدلّ السياق على أنّ الغرض الأصلي المراد من ذكر هذه النعمة يتمثّل في الاستدلال العقلي المنطقي بها على تحقيق ما ذُكِر من معاني النفي والإثبات، بينما يتمثّل الغرض البلاغي الأصلي المراد للمعنى السابق في إخبار محمد ﷺ بمضمون الخبر على سبيل البشرى والتوكيد لما سبق ذلك الخبر، كما أنّ بينهما تباينا من جهة الدلالة الزمانية، فهذا المعنى المعبر عنه في هذه الآية يحمل دلالة زمانية ماضية، بينما يحمل المعنى السابق دلالة زمانية مستقبلية متراخية. وتباينا من جهة السياق النصّي؛ حيث جاء معني هذه الآية في سياق ذكر النعم الماضية، والتذكير بها، والاستدلال بها على تحقق ما أخبر به؛ بينما جاء معنى الآية السابقة في سياق الإخبار بالشؤون الغيبية المستقبلية والتبشير بها. وتباينا من جهة السياق الخارجي، من حيث أنّ هذا المعنى ينتمي إلى سياق شؤون محمد ﷺ الماضية في أيام الطفولة واليتم، بينما ينتمي المعنى السابق إلى سياق شؤونه الغيبية المستقبلية. وهكذا يتجلى أنّ بين المعنيين من التباينات ما جعل كل واحد منهما معنى أساسيّا رئيسا مستقلا قائما برأسه مختلفا عن الآخر، غير مركب معه ولا ملازما له، وهذه التباينات بين المعنيين واستقلال كل منهما عن الآخر هو ما جعل كلا من المعنيين يرد ضمن جملة مستقلة، في آية مستقلة بالفاصلة القرآنية،

تناسقا مع هذه التباينات بين المعنيين ومع استقلال كل منهما عن الآخر، ومع ما بينهما من فصل، وتصويرا له، وتعبيرا عنه. أمّا عن العلاقة البيانية القائمة بين المعنيين، وعن السرّ البياني الذي اقتضى وجود هذا المعنى الرابع الرئيس المستقل في هذا الموضع تحديدا بجوار المعنى الذي سبقه، تاليا له في نسق معاني السورة وترتيبها وتواليها؛ فذلك يعود إلى أنه لما فرغ في الأخبار السابقة من نفي التوديع والقلى، وهذان خبران غيبيان، ومن بيان أنّ كل آخرة آتية هي خير لمحمد ﷺ مما سبقها، وأنه سوف يعطيه في المستقبل حتى يرضى؛ وهذان ــ أيضا ــ خبران غيبيان مستقبليات موعودان، لم يُرَيا بعد، ولم يشهد بوقوعهما الحسّ، فلذلك؛ لّزِم ــ على طريقة القياس الاستثنائي في ما سمّي في أبواب البلاغة والبيان بـــ (المذهب الكلامي) ــ أن تتبع هذه الأخبار الغيبية ــ نفيا وإثباتا ــ بالحجة والبرهان؛ فجاء هذا المعنى الكلي المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ على أسلوب الفصل[1] لشبه كمال الاتصال[2]؛ لا ليذكر هذه النعمة الماضية؛ فقط، ولا ليذّكر بها

(١) انظر: روح المعاني ١٥: ٣٨٠.

(٢) بيان الفصل هنا؛ أن من سنن كلام العرب أنه إذا ورد في الكلام معاني يفترض فيها أن تثير الأسئلة، فإن الكلام بعده يأتي مستأنفا بما يجيب على تلك الأسئلة المثارة، وهذه المعاني الغيبية المذكورة في صدر السورة=

محمدا ﷺ فحسب؛ بل للاستدلال[1] العقلي المنطقي بها، وللاستشهاد بهذا الشأن الواقعي الحسي المحقق في حياة رسول الله ﷺ الماضية، على تحقيق ما مضى ذكره من معاني النفي والإثبات، وبيان أنّ مَنْ أنعم عليه ﷺ في زمن الطفولة قبل التكليف وقبل الرسالة ــ بالرعاية والعناية والحفظ والرحمة والمعية والعطاء هو من أخبره بنفي ما نُفي وإثبات ما أُثبت، وهو حريّ بأن يكون أحفى به بعد التكليف والرسالة. وهكذا؛ نجد أنه قد انتقل الكلام ــ في نسق المعنيين وفي ترتيبهما وتواليهما ــ من الإخبار بالمعنى الغيبي المستقبلي غير المعلوم لدى المخاطب إلى الاستدلال عليه وعلى ما سبقه بما هو ثابت محسوس محقق معلوم لديه، وهو من باب الانتقال في الكلام من الشيء إلى الحجة عليه، ومن الأمر إلى برهانه، ومن ذكر الشيء إلى ذكر الدليل عليه، قال الألوسيّ في تعليل ذكر النعمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾: "ليستشهد بالخاصّ الموجود

=الكريمة ما من شكّ أنها ــ حسب سنن كلام العرب ــ تستدعي سؤالا أو أسئلة تشوّقيه عن حقيقتها؛ كأن يقال بعد سماعها: هذه أخبار غيبية عن محبة الله لرسوله وبقائه معه، ورعايته له، وعنايته به مستقبلا وعطائه؛ فما البراهين عليها؟، فأجيب على ذلك بالسؤال التقريري: (ألم يجدك .)؟ وبما بعده.

(١) انظر: التفسير الكبير ٣١: ٢١٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٢.

على المرتقب الموعود"[1]، وهذه الصورة من ترتيب المعاني ومن الخروج في النسق من المعنى السابق إلى المعنى التالي صورة في غاية الحسن والجودة والإحكام والكمال في البيان، وإنّك لتجد الدليل ساطعا في نفسك واضحا في تصوّرك بالفرق في إحكام الكلام وجودته، وقوة إقناعه وبلاغته؛ فيم لو أنّه ختمت السورة عند المعنى السابق.

المعنى الخامس: كون الله تعالى وجد محمدا ضالّا فهداه

وتأتي الآية السابعة من السورة الكريمة مركبة من جملتين خبريتين مثبتتين تنطويان على معنيين جزئيين، الأولى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾، والثانية: ﴿فَهَدَىٰ﴾، وصورة الجملتين معاً: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾. وبالتدقيق في نسق المعنيين الجزئيين في الآية، وفي نسق معناها الكلي؛ يتضح كون النسق والترتيب فيها قد جاء على مستويين متكاملين كما هو في الآيتين السابقتين، ولكل من المستويين علله ولطائفه وأسراره البيانية. هذان المستويان هما:

الأول: نسق المعنيين الجزئيين داخل الآية

وما يقال في هاتين الجملتين وفي معنييهما يشبه ما قيل في ما سبقهما في الآيتين السابقتين، ففي ظاهر الكلام أنّ الجملة الأولى جملة مكتملة مستقلة بمعناها؛ لأنها مكتملة الأركان من جهة صورتها

(١) روح المعاني ١٥: ٣٨٠.

النحوية، غير أنّها أُتبِعت بالجملة الثانية، ومجيء الجملتين متجاورتين في الآية على هذه الصورة من النسق والترتيب ومن الوصل؛ دلّ على أنّ معنيي الآية الجزئيين متكاملين، وأن بينهما تلازما اقتضى التجاور بينهما في الموضع، وحال دون الفصل بينهما بوقف أو فاصلة، وأوجب مجيئهما على هذه الصورة من النسق والترتيب، ولبيان نوع هذا التلازم القائم بين المعنيين وتصويرة والتعبير عنه؛ جاء وصل الجملة الثانية بالجملة الأولى بحرف الـ ﴿فَ﴾، بدلالاته البيانية في مثل هذا الموضع؛ فدلّ ذلك على أن علاقة التلازم القائمة بين المعنيين المعبر عنهما بهاتين الجملتين هي علاقة عطف وترتيب وتعقيب وسببية وجزاء؛ وبان أنّ المعنيين في حكم معنى كلّي واحد متكامل؛ كالمعنيين في الآيتين الخامسة والسادسة، وبان أن متانة علاقة التلازم بينهما تشبه علاقة التلازم بين المعنيين في الآيتين السابقتين؛ حتى لا يمكن الفصل بينهما بعلامة وقف أو فاصلة قرآنية. وعلّة التلازم البياني القائم بين هذين المعنيين تشبه علة التلازم البياني القائم بين معنيي كلٍّ من الآيتين السابقتين، وذلك أنه قد بُدأتْ الآية الكريمة بالخبر الأوّل المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾، ومع أنّ هذه الجملة قد جاءت مكتملة الأركان في صورتها النحوية؛ إلا أنّه من البيّن أنّ دائرة الإخبار لم تغلق بعد الخبر الأوّل، ومجاله ما زال مفتوحا، وموضع العبرة في

أنْ وجد الله تعالى نبيه ضالّا لم يتحدد بعد، وما ترتب على أن ألفى الله ــ تعالى ــ محمدا على هذا الحال لم يَبِنْ، ووجه الاستدلال بها لم يظهر بعد؛ ومن ثم كان في المعنى الأول نقص وغموض وإبهام؛ فنُسِقَ عليه مباشرة وأتبع في الترتيب المعنى الثاني ﴿هَدَىٰ﴾ بحرف الـ ﴿فَ﴾؛ فاندمج المعنيان في الآية ــ على ما سبق بيانه في الآية السابقة ــ اندماجا تحقق به إغلاق ما في المعنى الأول من انفتاح، وتحديد موضع العبرة فيه، وبيان ما ترتب على أن ألفى الله ــ تعالى ــ محمدا على هذا الحال، واتضاح النعمة التي أعقبت ذلك الحال، وظهور وجه الاستدلال؛ وكمل بهذا الاندماج بثاني المعنيين أولُهما، وزال به غموضُه، والتحم المعنيان في معنى واحد متلازم الجزأين. ومن البيّن أنه لو أزيل تجاور المعنيين، أو حذف آخرهما، أو نقض نسقهما وترتيبهما، أو فصل بينهما، أو وصل بينهما بغير الفاء، ما تحقق فيهما هذا الاندماج، وما كان هذا التلازم، وما انغلق ما في المعنى الأول من انفتاح، ولا بان موضع النعمة، ولا وضح وجه الاستدلال.

الثاني: نسق المعنى الكلي الرئيس للآية في إطار المعاني الرئيسة للسورة

اتضح آنفا ما يخصّ نسق المعنيين الجزئيين في الآية وترتيبهما، وبقي ما يخص المعنى الكلي في الآية؛ من جهة استقلاله برأسه عن

المعنى الذي سبقه، وعلاقته به، وسرّ وقوعه في هذا الموضع الذي هو فيه ــ بعد المعنى الذي سبقه ــ من نسق معاني هذه السورة وترتيبها وتواليها. أمّا في شأن استقلال المعنى الكلّي الذي تضمنته هذه الآية عن المعنى الأساسي الرئيس الذي سبقه من عدمه؛ فمن البيّن أنّ هناك تباينات واضحة بين معنى هذه الآية ومعنى الآية السابقة، وتأتي هذه التباينات بين المعنيين الكليين من جهة الصورة النحوية، إذ عُبّر عن المعنى السابق بجملة استفهامية إنشائية، بينما عُبّر عن المعنى في هذه الآية بجملة خبرية، ومن جهة المضمون، إذ مضمون الآية الأولى؛ على ما مرّ: سؤال تقريري للمخاطب: عمّ إذا كان الله ــ تعالى ــ قد ألفاه في الزمن الماضي يتيما بلا أبٍ ولا أمٍّ فأواه)، بينما مضمون هذه الآية (إخبار الله تعالى نبيه بكونه قد وجده حائرا، لا يهتدي ــ بنفسه ــ إلى وجه الصواب في الأمور؛ فهداه السبيل، وأراه وجه الحقّ والصواب فيها)، ومن الواضح أنّ كلا من المعنيين مختلف في مضمونه عن الآخر، مستقل عنه في الدلالة، غير مركب معه ولا جزء منه، وغير ملازم له. وهذا التباين بين المعنيين من هاتين الجهتين والاستقلال في كل منهما عن الآخر هو ما جعل كلا منهما يرد ضمن جملة مستقلة، في آية مستقلة، مفصولة عن الآية الأخرى بالفاصلة القرآنية؛ تناسقا مع هذا الاختلاف بين المعنيين ومع استقلال كل منهما عن الآخر، وتصويرا له. أمّا عن

علاقة هذا المعنى بالمعنى الذي سبقه، فمن الملاحظ أنّ بين هذين المعنيين الرئيسين ــ وإن تباينا من جهتي الصورة النحوية والمضمون واستقلّ كل منهما عن الآخر ــ وجوه تناسب من جهة الغرض، من حيث كان الغرض في كلّ منهما: بيان النعمة التي ذكرت فيه، وتذكير محمد ﷺ بها، والاستدلال العقلي المنطقي بالواقعي المحسوس من حياة رسول الله ﷺ المعلومة الماضية على تحقيق ما ذُكِر من معاني النفي والإثبات وتوكيده، ومن جهة الدلالة الزمانية، إذ كلا المعنيين يحملان دلالة زمانية ماضية، ثم من جهة السياق النصّي؛ حيث جاء المعنيان كلاهما في السورة في سياق ذكر النعم الماضية على سبيل الذكر والتذكير والاستدلال، ومن جهة السياق الخارجي، من حيث ينتمي المعنيان إلى سياق شؤون محمد ﷺ الخاصة وإلى أحداث حياته الماضية. هذه التناسبات بين المعنيين من هذه الجهات سوّغت بيانيا عطف جملة: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ على الجملة التي سبقتها: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾، ومن ثمّ عطف معنى الجملة الثانية على معنى الجملة الأولى عطف استئناف من باب عطف القصة على القصة، وجاز عطف هذه الجملة الخبرية على الجملة التي سبقتها مع كونها إنشائية لأنّ الاستفهام في الجملة السابقة كان تقريريا معناه النفي، ونفي النفي إثبات، لذا كان العطف

هنا من باب عطف المثبت على المثبت[1]. أمّا في شأن السرّ البياني الذي اقتضى وجود هذا المعنى الرئيس المستقل في الموضع الذي هو فيه بجوار المعنى الذي سبقه تحديدا؛ فذلك يعود إلى تلك التناسبات القائمة بين المعنيين من جهات الغرض والدلالة الزمانية والسياقين النصي والخارجي التي أشير إليها آنفا. وأما في شأن العلة البيانية التي اقتضت وجود هذا المعنى في الموضع الذي هو فيه بعد المعنى الذي سبقه تحديدا؛ فذلك يعود إلى أن المعنى السابق يتعلق ببيان حال اليتم التي ألفى الله تعالى عليها محمدا، وما ترتب على ذلك من إيواء ورعاه ورحمه، وهذا معنى يتعلق بالمرحلة الزمنية المبكرة من حياته ﷺ إذ كان صغيرا، وبحاله فيها، وما يناسب هذا الحال، ثم جاء المعنى الذي يليه لبيان حال الضلال الذي ألفاه ــ تعالى ــ عليه فهداه وأرشده إلى وجه الحق، وهذا حال يأتي بعد حال اليتم؛ لما هو معلوم من أنّ صفة اليتم إنما تكون للصبي حتى يبلغ الرشد، فهي مرحلة تسبق سنّ التكليف، وحريّ ألا يكون فيها بحث عن الحق، وألا يكون فيها وصف برشاد ولا بضلال، وبهذا؛ فإنّ في ترتيب المعنيين وتواليهما خروج بالكلام في حياته ﷺ وأحواله مما هو سابق إلى ما هو لاحق، وانتقال من الكلام عن شيء

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن ٢ ــ ٣٣٢ ــ ٣٣٣، وروح المعاني ١٥: ٣٨١.

يتعلق بحال الطفولة والصبا إلى آخر يتعلق بحال النضج والرشد والشباب، وتحوّل مما هو ملازم لحال الطفولة لازم لها إلى ما هو ملازم لحال الرشد والنضج والشباب لازم لها، وهكذا؛ فهو انتقال وترتيب في عرض المعنيين وفي الاستدلال بهما على ما يقتضيه منطق العقل، ومنطق الزمن والواقع، وعلى ما يقتضيه حسن البيان وجودته وإحكامه، وهو انتقال جارٍ على سنن البيان العربي ومذاهبه في الانتقال في الكلام من الشيء إلى لصيقه، وفي الخروج فيه من المعنى إلى المعنى الذي يليه، وهذا أداء بياني عال ــ في شأن نسق المعاني وترتيبها وتواليها ــ على جانب من الدقة والجودة والإحكام، ولو نُقِض النسق والترتيب لزال الإحكام، وبان الخلل.

المعنى السادس: كون الله تعالى وجد محمدا عائلا فأغناه

وهذه الآية الكريمة مركبة ــ كالآيات الثلاث السابقات ــ من جملتين خبريتين مثبتتين، الأولى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾، والثانية: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾، وصورة الجملتين معاً: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، والنسق المعنوي في هذه الآية يشبه النسق المعنوي في الآيات الثلاث السابقات؛ يأتي على مستويين:

الأول: نسق المعنيين الجزئيين داخل الآية

وكما هو الحال في الآيات الثلاث السابقات؛ تأتي الجملة الأولى في هذه الآية مكتملة في صورتها النحوية، غير أنها أتبعت ــ على

الفور ــ بالجملة الثانية؛ فدُلّ بمجيء الجملتين متجاورتين في الآية على هذه الصورة الخاصة من النسق والترتيب، وبوصلهما بحرف الـ ﴿فَ﴾؛ على أنّ العلاقة بين المعنيين المعبَّر عنهما بهاتين الجملتين علاقة عطف وترتيب وتعقيب وسببية وجزاء، ودلّ كذلك على أنّ المعنيين في حكم معنى كلّي واحد متكامل؛ كالمعاني في الآيات الخامسة والسادسة والسابعة، ودلّ على أنّ علاقة التلازم بينهما ــ مثلها مثل علاقة التلازم بين المعنيين في كل من تلك الآيات، والعلّة البيانية التي اقتضت تجاور هذين المعنيين الجزئيين في الآية الكريمة، وقامت بسببها علاقة التلازم والتكامل بينهما، واقتضت مجيئهما على هذه الصورة من النسق المتصل والترتيب داخل الآية الكريمة، واقتضت كذلك وصل الجملتين بحرف الـ ﴿فَ﴾ تحديدا؛ هي ذاتها العلة البيانية التي اقتضت تلازم المعنيين الجزئيين في كلّ من الآيات الثلاث السابقة؛ سواء بسواء، وما يقال في علل التلازم ومسوغاته البيانية هنا هو عينه ما قيل في تلك المواضع؛ لأنّ الصورة واحدة. وبقي في هذا الموضع الأخير من مواضع المعاني الجزئية المتلازمة داخل هذه الآيات؛ أن أشير إلى معنى عام تشترك فيه الآيات الأربع السابقات؛ حول طبيعة العلاقة بين المعاني الجزئية الموصولة بحرف الـ ﴿فَ﴾ داخل تلك الآيات، فقد أشار العلماء إلى أنّه يُدَلّ بـ ﴿فَ﴾ في مثل هذه المواضع على

(العطف والترتيب والتعقيب، والسببية، والعلّة، والجزاء) دفعة واحدة، وقد اتضح تماما في هذه المواضع الأربعة حقيقة ذلك، فلو عدنا إلى المعنيين الجزئيين في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾؛ ثم دققنا النظر في العلاقة البيانية التي دُلّ بـ ﴿فَ﴾ عليها بين هذين المعنيين؛ لوجدنا المعنى الأول ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ وتحققه من الله تعالى هو أصل المعنى الثاني: ﴿تَرْضَىٰ﴾ وتحققه من رسول الله ﷺ، وهو المقدم عليه في الوجود وفي الزمن، وهو الذي قاد إليه، وهو سببه، وعلّته، ولولا المعنى الأوّل لما وجد أصلا المعنى الثاني، ولما قام في الواقع ولا في الكلام، بينما كان المعنى الثاني فرعا على المعنى الأوّل، معطوفا عليه، تاليا له وعقيبا في الوجود وفي الزمن، مترتّبا عليه، معلولا به، مسببا عنه، وجزاء له، مكملا لنقصه، مزيلا لغموضه، ولذلك وُصِفت العلاقة بين هذين المعنيين بأنها علاقة تلازم تامّ؛ لا علاقة تركيب. وما قيل في معنيي هذه الآية يقال في معنيي كلّ من الآيات الثلاث التي تليها، ويقال في ما يشبهها من المواضع في الكلام، ولعله قد اتضح جليا ما عناه العلماء في شأن هذه الـ ﴿فَ﴾ ووظائفها البيانية، وفي شأن العلاقة بين المعاني التي توصل بها.

الثاني: نسق المعنى الكلي الرئيس للآية في المعاني الرئيسة للسورة

اتضح آنفا كون المعنيين الجزئيين في الآية المعبّر عنهما بجملتي: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ و﴿أَغْنَىٰ﴾ قد اندمجا من جهة تجاورهما ونسقهما وترتيبها، ومن جهة علاقة التلازم المعنوي القائمة بينهما، ثم من جهة الوصل بينهما بحرف الـ ﴿فَ﴾؛ اندماج عطف وتعقيب وترتّب وسببية وجزاء في معنى كلي واحد متلازم الجزأين، متضامّ الطرفين، وبقي الوقوف على معنى الآية الكلي من جهة استقلاله عن المعنى الذي سبقه، ومجاورته له، وعلاقته به، وسرّ وقوعه في هذا الموضع الذي هو فيه ــ بعد المعنى الذي سبقه ــ من نسق معاني هذه السورة الكريمة وترتيبها وتواليها. أمّا في شأن استقلال هذا المعنى الكلّي الذي تضمنته هذه الآية عن المعنى الأساسي الرئيس الذي سبقه من عدمه؛ فمن الملاحظ أنّ هناك تباينا واضحا بين معنى هذه الآية ومعنى الآية السابقة من جهة المضمون، إذ مضمون الآية السابقة: (إخبار الله تعالى نبيه بكونه قد وجده ضالا، حائرا، ملتبسا عليه الأمر، لا يهتدي ــ بنفسه ــ إلى وجه الصواب؛ فهداه السبيل، وأراه وجه الصواب في الأمور)، بينما مضمون هذه الآية: (إخبار الله تعالى لرسوله ﷺ بكونه قد وجده عائلا، فقيرا، لا مال له، فأغناه وأزال عنه عيلته وفقره)، وواضح أنّ المعنى السابق يتعلق بحال

الضلال والهدى في حياة رسول الله ﷺ الماضية، بينما يتعلق هذا المعنى بحال العيلة والغنى، والضلال والهدى شيء، والعيلة والغنى شيء آخر، وبيّن أنّ كلّا من المعنيين معنى قائم برأسه، مستقل عن الآخر في الدلالة، غير مركب معه ولا جزء منه ولا ملازم له، وبسبب هذا التباين والاستقلال جاء كل منهما في آية مستقلة مفصولة عن الآية الأخرى بالفاصلة القرآنية؛ تناسقا مع هذا الاختلاف والاستقلال، وتصويرا له. أمّا عن علاقة هذا المعنى بالمعنى الذي سبقه، فمن الملاحظ أنّ بين المعنيين تناسبا من جهة الصورة النحوية؛ من حيث جاء كل منهما في جملة فعليه خبرية مثبتة، تشبه الأخرى في عناصر تكوينها، وتناسبا من جهة الغرض؛ من حيث كان الغرض في كلّ منهما: بيان النعمة التي ذكرت فيه، والتذكير بها، والاستدلال بها على تحقيق ما مضى من معاني النفي والإثبات. وتناسبا من جهة الدلالة الزمانية؛ من حيث أنّ كلّا من المعنيين يحمل دلالة زمانية ماضية. وتناسبا من جهة السياق النصي؛ حيث جاء المعنيان في سياق تعداد النعم على سبيل الذكر والتذكير والاستدلال. وتناسبا من جهة السياق الخارجي؛ من حيث ينتمي المعنيان إلى سياق شؤون محمد ﷺ الخاصة وأحداث حياته الماضية. هذه التناسبات بين المعنيين سوّغت عطف جملة: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ على الجملة التي سبقتها: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾. أمّا

في شأن السرّ البياني الذي اقتضى وجود هذا المعنى السادس الرئيس المستقل بجوار المعنى الذي سبقه تحديدا؛ فذلك يعود إلى تلك التناسبات القائمة بين المعنيين التي أشير إليها آنفا. وأمّا في شأن العلة البيانية التي اقتضت وجود هذا المعنى في الموضع الذي هو فيه من نسق معاني السورة وترتيبها وتواليها؛ بعد المعنى الذي سبقه تحديدا؛ فذلك يعود إلى أن المعنى السابق يتعلق ببيان حال الضلال التي ألفى الله عليها محمدا فهداه ودلّه إلى وجه الحق، وهو أمر يتعلق بشأن الرشد وعدمه، وبالهدى والضلال، بينما يتعلق هذا المعنى ببيان حال العائلة والعيلة، والفقر والغنى، ومن المنطقي أنّ المعنى السابق هو أسبق في الزمن وأسبق في الأهمية على ما يتعلق بأمر إنشاء الأسرة وما يرتبط به من العيلة والفقر والغنى، والرشد والضلال أمر ذاتيّ خاص، والعيلة والفقر أمر أشمل وأعمّ لتعدي أثره الحسي إلى الغير، ومن ثمّ؛ فإنّ في ترتيب هذين المعنيين وتواليهما وتسلسلهما انتقال في الكلام في ماضي حياته ﷺ وأحواله مما هو سابق في الوجود إلى ما هو لاحق، ومما هو ألصق بمرحلة الرشد والشباب إلى ما هو ألصق بمرحلة الرجولة والتقدم في العمر، وكذلك فهو خروج في الكلام ممّا هو أكثر أهمية وإلحاحا في حياة محمد ﷺ إلى ما هو أقلّ، ومما هو خاصّ به إلى ما هو أعمّ.

المعنى السابع: النهي عن قهر اليتيم

تتركب هذه الآية الكريمة ــ على ما يقتضيه حسن البيان في تأويل حرفي ﴿فَأَمَّا﴾ وفي وظيفتهما البيانية الظاهرة في الموضع الذي جاءا فيه من نسق معاني هذه السورة الكريمة ــ من جملة إنشائية قائمة على أسلوب النهي؛ أصلها: (لا تقهر اليتيم)، فلمّا دخلت عليها ﴿فَ﴾ الوصل و﴿أَمَّا﴾ التفصيلية؛ بوظائفهما البيانية؛ تغير نسق الجملة واختلف ترتيب عناصرها لتصبح على هذه الصورة: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، وقد تبيّن في المستوى السابق ما يكمن في هذه الجلمة من جهة نسقها النحوي من أسرار ولطائف، وبقى ــ هنا ــ النظر في معنى هذه الآية من جهة استقلاله عمّا سبقه أو تبعيته له، وعلاقته به، وسرّ وجوده في هذا الموضع الذي هو فيه بجوار المعنى الذي سبقه، تاليا له في نسق معاني السورة الكريمة وترتيبها وتواليها. أمّا في شأن استقلال هذا المعنى عن المعنى الأساسي الرئيس الذي سبقه؛ فمن البيّن الجليّ أنّ بين المعيين تباينات كبيرة: من جهة الصورة النحوية؛ إذ جاء هذا المعنى إنشائيا إنشاءً حقيقيا، مُفرغا في جملة نهي واحدة، في حين جاء المعنى السابق خبريّا محضا مثبتا، مفرغا في جملتين فعليتين متلازمتين. ومن جهة المضمون؛ من حيث أن هذا المعنى يتمثل في (نهي الله تعالى لنبيّه ﷺ عن قهر اليتيم)، بينما يتمثل المعنى السابق في: (إخبار الله تعالى

رسوله الله ﷺ بكونه قد وجده عائلا، فقيرا، لا مال له، فأغناه وأزال عنه عيلته وفقره). ومن جهة الغرض؛ من حيث أنّ الغرض في هذا المعنى إرشادي توجيهي محض، يتعلق ببيان ما يجب العمل به في شأن اليتيم، بينما كان الغرض من المعنى السابق ذكر نعمة الإغناء بعد الفقر والعيلة، والتذكير بها، والاستدلال بها على تحقيق ما مضى بيانه من معاني النفي والإثبات. ثمّ من جهة الدلالة الزمانية؛ إذ يحمل هذا المعنى فيه دلالة زمانية مستقبلية، بينما يحمل المعنى السابق دلالة زمانية ماضية. ومن جهة السياق النصي؛ حيث جاء هذا المعنى في استهلال سياق الإرشادات والتوجيهات الختامية التي وجّه الله تعالى نبيه نهيا؛ إلى الكفّ عنها، وأمرا إلى العمل بها، أمّا المعنى السابق فقد جاء في خاتمة سياق تعداد بعض النعم الماضية؛ على سبيل الذكر والتذكير والاستدلال. وأخيرا؛ من جهة السياق الخارجي؛ من حيث ينتمي هذا المعنى إلى سياق ما هو آتٍ من أفعاله ﷺ العامّة، مما يتعلق منها بالتعامل مع اليتيم خاصة، بينما ينتمي المعنى السابق إلى سياق شؤونه الخاصة وإلى أحداث حياته الماضية. وهكذا يتضح جليا أنّ بين المعنيين من التباينات الأساسية ما جعل كلّ واحد منهما معنى أساسيّا رئيسا مستقلا، قائما برأسه، مختلفا عن الآخر، غير مركب معه ولا جزء منه ولا ملازم له، وهذه التباينات بين المعنيين والاستقلال في كل منهما عن الآخر هي

ما جعل كلا منهما يرد ضمن جملة مستقلة، في آية مستقلة، مفصولة عن الآية الأخرى بالفاصلة القرآنية. أمّا عن العلاقة البيانية العميقة القائمة بين المعنيين، وعن السرّ البياني الذي اقتضى وجود هذا المعنى السابع الرئيس المستقل في هذا الموضع الذي هو فيه بجوار المعنى الذي سبقه تحديدا، تاليا له في نسق معاني السورة وترتيبها وتواليها ففي ذلك تفصيل:

لقد تبيّن آنفا أنّ بين هذا المعنى والذي سبقه تباينات كبيرة من جهات: الصورة النحوية والمضمون والغرض والدلالة الزمانية والسياقين: النصي والخارجي، وبسبب هذه التباينات الكبيرة بدت النقلة بينهما بعيدة جدا؛ نقلت الكلام من باب إلى باب آخر؛ حتّى كأنه لا علاقة بينهما، وإنك لتجد البون بين المعنيين واسعا عندما تركّز عليهما بمعزل عمّا سبقهما وما تلاهما من المعاني، وتتمعن فيهما، وتحاول تصوّر النقلة بينهما. وهنا يتبادر سؤالان: لِمَ لمْ يكن في هذا الموضع من نسق الكلام قطع بين المعنيين يتناسب مع تلك التباينات الظاهرية الشديدة، فيأتي الكلام على هذه الصورة: (ووجدك عائلا فأغنى. أمّا اليتيم فلا تقهر)؛ بفصل المعنى الثاني عن المعنى الأوّل؛ لما يبدو بينهما ــ في الظاهر ــ من كمال الانقطاع؟، ولِمَ وُصِل المعنيان بـ ﴿فَ﴾ تحديدا؟. والجواب على هذين السؤالين مودع في هذه الـ ﴿فَ﴾ العجيبة التي تستوقفنا هنا للمرة الخامسة،

فهي في هذا الموضع ــ مع إلفها (أمّا) التفصيلية ــ بمثابة جسر العبور في الكلام من باب إلى باب، وقد سبقت الإشارة في النسق النحوي إلى كون هذه الـ ﴿فَ﴾ ــ بحسب وظائفها البيانية الحقيقية الظاهرة في هذا الموضع ــ حرف تفصيل وعطف واستئناف وسببية وتعقيب وجزاء، ومن هنا؛ يقال: إنّ الـ ﴿فَ﴾ هنا ليست ــ كما قيل ــ فاء الواقعة في جواب شرط مقدّر تقديرا صناعيا نحويا لا دليل عليه أصلا، ولا هي مجرّد حرف عطف أو استئناف بحسب الإعراب التقليدي الدارج، وإنّما هي في هذا الموضع لعلل بيانية أكثر عمقا ودقّة. لقد جيء بها هنا ليُدَلّ بها على فصل الكلام الذي يليها عن الكلام الذي سبقها، وعلى الفراغ من كلام ومعاني سابقة واستهلال كلام ومعاني جديدة، وعلى تفصيل ما يأتي من المعاني على ما مضى منها وترتيبه عليه، وعلى كون ما بعدها كلاما مستأنفا، معطوفا على ما قبلها من باب عطف القصة على القصة، وعلى كون ما سبقها سببا لما بعدها وعلّة لوجوده، وكون ما بعدها مسبَّبا عما قبلها، معلولا به ناتجا عنه، عاقبا له، مرتبا عليه، جزاء له. وتأسيسا على هذا؛ فإنه بإنزال الـ ﴿فَ﴾ الفاخرة هذه؛ بوظائفها البيانية الحقيقية هذه على هذا الموضع لاكتشاف العلاقة البيانية القائمة بين هذين المعنيين، ولوضع اليد على العلة البيانية التي قامت عليها علاقة الجوار بينهما، وسوّغت مجيء هذا المعنى في هذا

الموضع ــ بعد الذي سبقه ــ من نسق معاني السورة وترتيبها وتواليها؛ يتبيّن أنّ هناك علاقة بيانية عميقة بين المعنيين تتمثل في أنّ الانتقال من المعنى السابق إلى هذا المعنى هو خروج في الكلام من ذكر آخر النعم التي جيء بها على سبيل الذكر والتذكير والاستدلال، إلى ذكر أوّل ما يجب من الشكر والامتنان العملي المحسوس على تلك النعم التي ذكرت، كما هو خروج من تذكير النبي ﷺ بآخر ما كان له في الماضي وما أُعطيه؛ إلى ذكر أوّل ما عليه في المستقبل، وما عليه أن يُعطيه مقابل ما أُعْطِيَهُ، وبالتالي؛ وبحسب دلالة هذه الـ ﴿فَ﴾ ووظائفها البيانية؛ فإن الانتقال بين المعنيين هو في حقيقته العميقة انتقال في الكلام من الباب المختوم إلى الباب المستأنف، ومن المفصّل عليه إلى المفصّل، ومن القصّة المعطوف عليها إلى القصّة المعطوفة، ومن السبب إلى مسبَّبِه، ومن العلّة إلى المعلول، ومن المعنى إلى الذي يعقبه ويترتب عليه، ومن الشيء إلى جزائه، وقد لمّح إلى علاقة السببية هذه بين المعاني السابقة وبين هذا المعنى وما بعده البقاعي عندما قال: "ولمّا ذكّره بما أنعم عليه به من هذه النعم الثلاث أوصاه بما يفعل في ثلاث مقابلة لها ؛ فقال مسبّبا عنه...: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ﴾"(١)، ولأنّهم قد لمسوا علاقة العلة والسببية والتعقيب والجزاء هذه؛ فقد أوّلوا الانتقال من المعنى

(١) نظم الدرر ٨: ٤٥٧.

السابق إلى هذا المعنى بقولهم: معناه: "إذا كنت تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربك، وبيّن له الشكر بقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾"(١). وبهذا يتضح جليا أن مجيء هذين المعنيين على هذه الصورة التي جاءا عليها من التجاور ومن النسق والترتيب كان على ما يقتضيه منطق العقل في ترابط الأشياء وترتيبها، وعلى ما يقتضيه حسن البيان وجودته وإحكامه في الانتقال في الكلام من باب إلى باب، وفي الخروج فيه من المعنى إلى المعنى الذي يليه، وفي تخلصه من الإلف إلى إلفه، وهذا أداء بياني عال جدا ــ في شأن نسق المعاني وترتيبها وتواليها.

المعنى الثامن: النهي عن نهر السائل

تشبه هذه الآيةُ الكريمة الآيةَ التي سبقتها، فهي تتركب من جملة إنشائية قائمة على أسلوب النهي؛ أصلها: (لا تنهر السائل)، فلمّا دخلت عليها ﴿أَمَّا﴾ التفصيلية؛ تغير نسقها لتصبح على هذه الصورة: ﴿أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، وقد تبيّن في المستوى السابق ما يكمن في هذه الآية من جهة نسقها النحوي من أسرار ولطائف، وبقي ــ هنا ــ النظر في معنى هذه الآية من جهة استقلاله عن المعنى الذي سبقه، وعلاقته به، وعلة وجوده في هذا الموضع الذي هو فيه بعد المعنى الذي سبقه من نسق معاني هذه السورة الكريمة وترتيبها

(١) التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤.

وتواليها. أمّا في شأن استقلال هذا المعنى عن المعنى الأساسي الرئيس الذي سبقه؛ فواضح أنّ بين المعنيين تباينا من جهة مضمون كلّ منهما، ذاك أن المعنى السابق يتمثل في: (نهي الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ عن قهر اليتيم)، في حين يتمثل هذا المعنى في: (نهي الله تعالى لنبيّه عن نهر السائل)، واليتيم شيء والسائل شيء آخر، وقهر اليتيم شيء ونهر السائل شيء آخر، وعلى ذلك؛ فإنّ المعنيين مختلفان من حيث مضمونهما على نحو يبدو معه كلٌّ منهما معنى رئيسا قائما برأسه، مستقلا عن الآخر في الدلالة، غير مركب معه ولا جزء منه، ولا ملازم له. وبسبب هذا التباين بينهما ورد كلّ منهما ضمن جملة مستقلة، في آية مستقلة، مفصولة عن الآية الأخرى بالفاصلة القرآنية. وأمّا عن علاقة هذا المعنى بالمعنى الذي سبقه؛ فغير خافٍ أنّ بين المعنيين الرئيسين وجوه تناسب من جهات عديدة، فهما متناسبان من جهة الصورة النحوية، إذ جاء كل منهما في جملة نهي إنشائية، لها الصورة التركيبية نفسها، ولها النسق النحوي والترتيب نفسه، ومتناسبان من جهة الغرض من حيث كان الغرض منهما إرشاد رسول الله ﷺ وتوجيهه إلى ما يجب عليه في شأن ﴿الْيَتِيمَ﴾ و﴿السَّائِلَ﴾، ومتناسبان من جهة الدلالة الزمانية، من حيث أنّ كلا المعنيين يحمل دلالة زمانية مستقبلية، ومتناسبان من جهة السياق النصّي؛ حيث جاء المعنيان في سياق ذكر الإرشادات

والوجيهات الختامية في السورة، ومتناسبان ــ كذلك ــ من جهة السياق الخارجي؛ من حيث ينتمي المعنيان إلى سياق شؤون محمد ﷺ المستقبلية في شأن تعامله مع هذين الصنفين من البشر (اليتيم والسائل)، ومع الله تعالى ونعمه عليه. هذه التناسبات القائمة بين المعنيين سوّغت بيانيّا عطف جملة: ﴿أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ على الجملة التي سبقتها: ﴿أَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ بالـ ﴿وَ﴾؛ للدلالة على علاقات التجاور والتناسب والتآلف والتشاكل والانسجام هذه بين المعنيين، وتصويرها. أمّا في شأن السرّ البياني الذي اقتضى وجود هذا المعنى الرئيس المستقل في الموضع الذي هو فيه بجوار المعنى الذي سبقه تحديدا؛ فذلك يعود إلى تلك التناسبات القائمة بين المعنيين على ما ذكر آنفا، إذ سوّغت أن يتجاورا في موضعيهما من الآيات. وأما في شأن العلة البيانية التي اقتضت وجود هذا المعنى في الموضع الذي هو فيه من نسق معاني السورة وترتيبها؛ بعد المعنى الذي سبقه تحديدا؛ فذلك يتمثل في أنه قد بدئ في المعنى السابق بالنهي عن قهر اليتيم؛ لأنّ اليتيم هو الأولى بالعناية والرعاية والتقديم، وهو الأكثر حاجة إلى اللطف والشفقة والرحمة، وهو الأحرى بالمبادرة له بذلك كله، تبعه النهي عن نهر السائل لأنه ــ وإن كان هو أيضا حريّا بالرعاية والعناية ــ أقلّ حاجة من اليتيم إلى ذلك، وحاله أخفّ إلحاحا من حال اليتيم، ووجه آخر يتمثل في أنّ

اليتم صفة خاصة بالإنسان في مرحلة الصغر خاصة، أما السؤال فأمر مطلق غير مقيّد بعمر؛ بل هو إلى التقدّم في العمر أقرب، ووجه آخر يتمثل في أنّ القهر يتعلق بالظلم والجور وذلك أشد وأقسى، فيم يتعلق النهر بسوء التعامل فحسب، وهكذا، فإنّ نسق المعنيين وترتيبهما وتواليهما قد جاء على درجة عالية من الدقة والجودة والإحكام، فهو انتقال في نسق المعنيين وترتيبهما وتواليهما من ذكر من هو أولى بالعناية والرعاية والتقديم إلى ذكر من هو أدنى، وخروج في الكلام من ذكر من هو أكثر حاجة إلى اللطف والشفقة والرحمة إلى من هو أقل حاجة، وخلوص في المعاني مما هو أخصّ إلى ما هو أعمّ، ومما هو أقسى من الأفعال وأسوأ إلى ما هو أقل قسوة وسوءاً. وليس في نسق المعاني وترتيبها ما هو أكثر دقة وجودة وإحكاما من هذا؛ شأنه هنا؛ شأن نسق المعاني السابقة؛ سواء بسواء، وإنك لتجد هذه الدقة والجودة والإحكام ــ في نسق هذين المعنيين وترتيبهما جلية في نفسك، واضحة في تصورك؛ لو أنك افترضت عكس المعنيين في الموضع، فقدّمت وأخّرت على هذه الصورة: (فأما السائل فلا تنهر. وأما اليتيم فلا تقهر)، وستجد تلك المزايا واللطائف والدقائق البيانية المخبّأة في نسق المعنيين وترتيبهما، وغيرها مما سيذكر لاحقا ــ في وجهي نسق المعاني الآتيين ــ قد اختفت، وزالت حتى لم يعد لها وجود.

المعنى التاسع: الأمر بالحديث عن النعم

تتركب الآية الأخيرة من جملة إنشائية قائمة على أسلوب الأمر، أصلها: (حدّث بنعمة ربك)، فلمّا دخلت عليها ﴿أَمَّا﴾ التفصيلية؛ تغير نسقها لتصبح على هذه الصورة: ﴿أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، بتقديم الجار والمجرور ﴿بِنِعْمَةِ﴾ الذي هو موضع التفصيل والعناية والاهتمام على بقية عناصر تركيب الجملة؛ على ما تم بيانه من إعراب هذه الآية في النسق النحوي، وقد تبيّن في المستوى السابق ما يكمن في هذه الآية من جهة نسقها النحوي خاصة؛ من أسرار ولطائف بيانية، وبقى ــ هنا ــ النظر في معنى هذه الآية من جهة استقلاله عن المعنى الذي سبقه، ومن جهة علاقته به، وسرّ وجوده في هذا الموضع الذي هو فيه بعد المعنى الذي سبقه من نسق معاني هذه السورة الكريمة وترتيبها وتواليها. أمّا في شأن استقلال هذا المعنى عن المعنى الأساسي الرئيس الذي سبقه؛ فبيّن أنّ بين المعنيين تباينا جليا من جهة مضمون كلّ منهما، إذ يتمثل المعنى السابق في: (نهي الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ عن نهر السائل) خاصة؛ في حين يتمثل هذا المعنى في: (أمر الله تعالى لنبيه بالحديث عن نعمة ربه)، والنهي عن نهر السائل شيء، والأمر بالحديث عن نعم الله شيء آخر. أمّا عن علاقة هذا المعنى بالمعنى الذي سبقه؛ فملاحظ ما بين المعنيين الرئيسين ــ وإن تباينا من جهة المضمون

واستقلّ كل منهما عن الآخر ــ من وجوه تشاكل عديدة، من جهة الصورة النحوية، إذ جاء كل منهما في جملة إنشائية، إحداهما نهي والثانية أمر، مع تشاكلهما في الصورة التركيبية، وفي النسق النحوي والترتيب، ومن جهة الغرض، من حيث كان الغرض في كلّ منهما إرشاد رسول الله ﷺ وتوجيهه إلى ما يجب في شأن السائل ونعمة الله، ثم هما متشاكلان كذلك من جهة الدلالة الزمانية، من حيث يحمل كل من المعنيين دلالة زمانية مستقبلية، ومن جهة السياق النصي؛ حيث جاء المعنيان متجاورين في سياق ذكر الإرشادات والتوجيهات التي ختمت بها السورة، ومن جهة السياق الخارجي؛ من حيث ينتمي المعنيان إلى سياق شؤون محمد ﷺ المستقبلية في شأن تعامله مع هذين الصنفين من البشر، ومع الله تعالى ونعمه عليه. وهذه التناسبات بين المعنيين هي التي سوّغت بيانيّا عطف جملة: ﴿أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ على الجملة التي سبقتها: ﴿أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ للدلالة بهذا العطف على علاقات التناسب والتآلف والتشاكل هذه بين الجملتين وبين معنييهما، وهذه التناسبات كذلك هي التي سوّغت وجود هذا المعنى الرئيس المستقل في الموضع الذي هو فيه بجوار المعنى الرئيس الذي سبقه تحديدا. أما في شأن العلة البيانية التي اقتضت وجود هذا المعنى في الموضع الذي هو فيه من نسق معاني السورة وترتيبها وتواليها؛ بعد المعنى الذي سبقه تحديدا،

ووقوعه آخر معاني السورة دون سواه من المعاني؛ فذلك يتمثل في كون المعنى السابق يتعلق بحقوق العباد، وحقوق العباد مبنيّة على المشاحّة، بينما يتعلق هذا المعنى الأخير بحقوق الله تعالى، وحقوق الله مبنية على الرّحابة والسعة؛ فهذا وجه، ووجه آخر يتمثل في كون ما سبق هذه الآية الأخيرة من السورة قد انطوى على معاني جزئية وكلية؛ كلّ منها ــ في حدّ ذاته ــ نعمة عظيمة، فجاء هذا المعنى في خاتمة السورة؛ ليكون إرشادا ختاميا، وتوجيها أخيرا إلى ما يجب على رسول الله ﷺ عمله تجاه سائر ما ذكر من تلك النعم. وبهذا يتضح أنّ نسق المعنيين وترتيبهما هو انتقال في الكلام في شأن تلك الإرشادات والتوجيهات من ذكر ما هو مبني على المشاحّة والتضييق من الحقوق، إلى ذكر ما هو مبني على السعة والرحابة منها، وهو خروج فيه مما هو شكر خاصّ على نعمة معينة، إلى ما هو شكر عام على سائر النعم. ومن ثم فقد جاء نسق هذين المعنيين وترتيبهما في هذا الموضع على الدرجة ذاتها من الدقة والجودة والجمال والإحكام التي تحققت في نسق المعاني وترتيبها في المواضع السابقة، لا فرق. وستجد هذه الدقة والجودة والجمال والإحكام ــ في نسق المعنيين وترتيبهما ــ جليّة في نفسك واضحة في تصورك بارزة؛ لو أنك خالفتَ بين المعنيين في الموضع من النسق والترتيب، فقدّمت وأخّرت، وستجد أنّ تلك اللطائف البيانية

المخبّأة في نسق المعنيين وترتيبهما، وغيرها مما سيذكر في الوجهين الآتيين ــ قد اختفت كلها حتى لم يعد لها وجود.

بانتهاء هذه الآية الكريمة؛ وبانتهاء هذا المعنى المتعلق بإرشاد رسول الله ﷺ بالتحديث عن نعم الله تعالى، انتهت السورة الكريمة، وخُتمتْ سلسلة معانيها في صورتيها الجزئية والرئيسة، وأغلق نسق تلك المعاني ــ على هذا المستوى ــ وترتيبها وتواليها بعضها في إثر بعض، وتبيّن من هذا العرض أن السورة الكريمة قد استهلّت بالمعنى (الأول) المتمثل في القسم بالضحى والليل على نفي التوديع والقلى الذي يتعلق بحال رسول الله ﷺ القائم في زمن الخطاب، وبشأنه مع الوحي ومع انقطاعه، ومع دعوى المشركين، فلما عولجت هذه القضية وفصل الأمر في شأن الزمن الحاضر بنفي خبري التوديع والقلى نفيا مؤكدا، انتقل الكلام في المعنى (الثاني) إلى شأن رسول الله ﷺ في مستقبله الغيبي المطلق، فأُخبِر بأنّ كل شأن آتٍ هو خير له مما سبق من ذلك الشأن، ثم انتقل الكلام في المعنى (الثالث) إلى ذكر شأن غيبي مستقبليّ محدد من شؤونه ﷺ فأخبِر بأن الله سوف يعطيه مستقبلا حتى الرضا، ثم خرج الكلام إلى ذكر النعم التي أنعم الله بها على محمد ﷺ في الماضي على سبيل الذكر والتذكير والاستدلال؛ فبدأ في المعنى (الرابع) بذكر حال اليتم والإيواء، ثم انتقل في المعنى (الخامس) إلى ذكر حال الضلال

والهداية، ثم انتقل في المعنى (السادس) إلى ذكر حال العيلة والإغناء، ثم خرج الكلام في المعاني (السابع والثامن والتاسع) إلى إرشاده ﷺ في شأن (اليتيم)، ثم في شأن (السائل)، ثم في شأن (نعم الله) على التوالي. وقد تبين جليّا على نحو تفصيلي مستقصٍ تفصيلات الصورة التي جاء عليها نسق معاني هذه السورة الكريمة ــ على هذا المستوى الجزئي ــ وتجاورها وترتيبها وانجرارها؛ بعضها إثر بعض من بداية السورة إلى نهايتها، وما قام عليه ذلك النسق والتجاور والترتيب والتوالي من العلاقات والعلل والمسوغات، وما تحقق فيه من الأسرار والدقائق واللطائف البيانية. وتبيّن كذلك أنّ الخروج في نسق معاني السورة من المعنى إلى المعنى الذي يليه، وانتقال الكلام من الشيء إلى الذي بعده قد جاء ــ على مدى السورة ــ على أعلى ما يقضيه حسن البيان وجودته، ودقّته وإحكامه.

الوجه الثاني: النسق المعنويّ المقطعيّ

اتضح في الوجه السابق من وجوه نسق معاني السورة وترتيبها أنّ هذه السورة تتركب في جملتها من تسعة معاني كلية رئيسة أساسية؛ بأنواعها الثلاثة؛ المركب والمتلازم والبسيط، كلّ منها قائم برأسه، مستقل عن الآخر في صورته النحوية ومضمونه وغرضه ودلالته الزمنية وسياقيه: النصّي والخارجي، ومن البيّن الجلي أن

هذه المعاني التسعة تتوزّع ــ على أساس ما بينها من التشاكل أو التغاير في المضمون الذي جاء كلّ منها للتعبير عنه، وفي الغرض الذي سيق له كل منها ــ في ثلاث مجموعات مختلفة، كلّ مجموعة تتكون من ثلاثة معاني تشكّل في مجموعها مقطعا من السورة، مميزا عن المقطعين الآخرين، يمكن إدراجه تحت عنوان بسيط محدد، يعبّر عنه بدقة. في هذه المقاطع الثلاثة، وفي عناوينها، وما يأتلف في كلّ منها من المعاني، ثم في نسق هذه المقاطع وترتيبها في السورة، وفي ما يقوم عليه ذلك النسق والترتيب من المسوغات والعلل والعلاقات، وما يكمن فيه من الدقائق واللطائف البيانية؛ التفصيل الآتي:

المقطع الأول: البشائر

والبشائر: جمع بشرى: والبشرى خَبَرٌ سارٌ مُفْرِحٌ لا يعلمه المُخبَر به قبل زمن إلقاء الخبر(١)، وفي المقطع الأوّل من السورة تأتي المعاني الرئيسة الثلاثة الأولى جميعها بشائر(٢)؛ لا يندّ عن ذلك أيّ منها، فالخبر الأوّل المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ هو ــ في حقيقته ــ بشرى سارّة

(١) انظر: المعجم الوسيط. مادة (بشر) ١: ٥٨.

(٢) انظر: نظم الدرر ٨: ٤٥٥، والبحر المديد ٨: ٣١٦، وتفسير المراغي ٣٠: ١٨٣، ١٨٤.

مفرحة أولى للمخاطب، تتعلق بحاله مع الوحي في زمن الخطاب بعد شيوع دعوى المشركين بأنّ ربّه (ودّعه وقلاه)، وبعد ما ناله ﷺ من الغمّ والحزن والوحشة لانقطاع الوحي، وليس في مقام كهذا ما هو أعظم بشارة من هذا المعنى، والخبر الثاني المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ بشرى سارّة مفرحة ثانية عظيمة، تتعلق بسائر شؤونه المستقبلية الآتية، وأحواله مع الوحي والرسالة ومع أحداث المستقبل التي سيكون فيها من خير إلى ما هو خير منه، ومن شرف إلى ما هو أشرف، ومن شأن عظيم إلى ما هو أعظم، والخبر الثالث المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ بشرى سارّة مفرحة عظيمة ثالثة تتعلق ــ خاصة ــ بما سينال ﷺ مستقبلا من عطاء؛ حتى يرضى. وهذه الأخبار الثلاثة جميعها أخبار غيبية، أخبر الله تعالى بها رسوله ﷺ بمعاني تتعلق بحياته الحالية في زمن التكلم مع الوحي، وبأحواله المستقبلية مع الوحي والرسالة والدعوة، وما سيكون عليه شأنه، وما سيناله مستقبلا من عطاء الله العظيم حتى الرضا، وقد سبقت الإشارة في الوجه السابق إلى أنّ الغرض من كلّ منها إخبار محمد ﷺ بمضمون ذلك الخبر على سبيل البشرى، وبعث السرور والطمأنينة في نفسه؛ لأنّها كلها أخبار سارّة مفرحة لم يكن يعلم بها، وقد كان في أمسّ الحاجة إليها في ذلك المقام. قال المراغي في تفسير صدر السورة:

"نزلت هذه السورة حاملة له[1] أجمل البشرى، ملقية في نفسه الطمأنينة"[2]، وذكر صدر السورة ثم قال: "ثم ذكر له ما يثلج صدره، وما فيه كمال الطمأنينة والبشرى، فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.... ثم زاده في البشرى، فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾"[3]، وهكذا تأتي هذه البشائر الخبرية الغيبية الثلاث متجاورة في هذا المقطع الاستهلالي، متجانسة، مؤتلفة في مضامينها، وأغراضها، وحتى في الصور النحوية التي جاءت عليها تلك الأخبار؛ نفيا وإثباتا؛ لتشغل المقطع الأوّل من مقاطع هذه السورة، منسوقة بحرف العطف ﴿وَ﴾ للدلالة على استقلال كل منها عن الآخر، وللدلالة على تجانسها وتشاكلها مرتبة ــ على ما مرّ بيانه في النسق المعنوي الجزئي ــ متوالية على أحكم ما يكون النسق والترتيب والتوالي وأدقه وأجمله وأكمله.

المقطع الثاني: الاستدلالات

الاستدلال بالشيء على الشيء: اتخاذه دليلا عليه[4]، وتحت هذا العنوان يمكن تصنيف المقطع الثاني من مقاطع السورة؛ بمعانيه

---

(١) يعني رسول الله ﷺ.

(٢) تفسير المراغي ٣٠: ١٨٣.

(٣) المصدر نفسه ٣٠: ١٨٣ ــ ١٨٤، بتصرّف.

(٤) انظر: المعجم الوسيط. مادة (دلّ) ١: ٢٩٤.

الرئيسة الثلاثة الوسطى: (الرابع والخامس والسادس)، وهي تتعلق ببيان ثلاث نعم أنعم الله تعالى بها على نبيه في حياته الماضية قبل البعثة والوحي، قال الشوكاني: "﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ هذا شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم"(١)، وهي جميعها تتعلق بعناية الله تعالى به ورعايته له، وإحاطته بحفظه وعنايته وهدايته وعطائه، ذُكرتْ جميعها على سبيل الذّكر والتذكير والاستدلال، فالمعنى (الأول) في هذا المقطع؛ المعبَّر عنه استفهاما بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ ليس السؤال فيه على أصله الذي هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما قبل زمن التكلّم ــ تعالى الله عن ذلك ــ وإنّما هو سؤال تقريري الغرض القريب منه ذكر هذه النعمة وتذكير المخاطب بها، والغرض البعيد المراد؛ استدلالٌ أوّل به على تحقّق الأخبار الغيبية الثلاثة الواردة في المقطع الأوّل من السورة، والمعنى (الثاني) المعبّر عنه إخبارا بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾؛ كذلك؛ ليس على أصله في إخبار المخاطب بشيء لم يكن يعلمه قبل زمن التكلم؛ إذ هو يعلم ذلك؛ وإنّما هو خبرٌ الغرض القريب منه ذكر تلك النعمة وتذكير المخاطب بها، والغرض البعيد الأساسي المراد الاستدلال به على ما استُدِلّ بالمعنى الذي سبقه عليه، والمعنى (الثالث) في هذا المقطع المعبّر عنه إخبارا

(١) فتح القدير ٤: ٣٢٠٣.

بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أيضا؛ ليس على أصله في إخبار المخاطب بشيء لم يكن يعلمه قبل زمن التكلم؛ وإنما هو خبرٌ الغرض القريب منه ذكر تلك النعمة وتذكير المخاطب بها، والغرض البعيد الأساسيّ المراد استدلال ثالث على ما استُدل بالمعنيين السابقين عليه. فهذه ثلاثة استدلالات عقلية منطقية بثلاث وقائع حسية معلومة؛ قام عليها المقطع الثاني من مقاطع السورة الكريمة، وتميّز بها عن المقطع الذي سبقه، وعن المقطع الذي سيليه، متجانسة مؤتلفة متجاورة، منسوقة بحرف الـ ﴿وَ﴾ للدلالة على هذا التجانس القائم بينها، وعلى استقلال بعضها عن بعض، مرتبة في المقطع ــ على ما تمّ بيانه في النسق المعنوي الجزئي ــ متوالية أدّق ما يكون النسق والترتيب والتوالي وأحكمه، وقد لمّح صاحب أضواء البيان إلى هذا الترتيب في معاني المقطع الرئيسة الثلاثة هذه إذْ قال عنها: "وهي من أعظم خيرات الدنيا من صِغَرِهِ إلى شَبابِهِ وكِبَرِهِ"(١).

المقطع الثالث: الإرشادات

وبهذا العنوان يمكن تسمية المقطع الثالث، وهو المقطع الأخير في السورة الكريمة، المتعلق بالمعاني الثلاثة الرئيسة المتجانسة الأخيرة: (السابع والثامن والتاسع) التي جاءت جميعها لإرشاد رسول الله ﷺ على سبيل الإلزام نهيا وأمرا إلى ما عليه فعله في شأن كلّ

(١) أضواء البيان ٧: ٣٠٩.

من هذه المعاني الثلاثة، فالمعنى الأوّل في هذا المقطع المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ إرشاد أوّل للمخاطب إلى وجوب الكفّ عن كل قول أو فعل يغلب اليتيم ولا يرضيه، وعن كل ما يُلحق به ظلما يشعره بعدم الرضا، والمعنى الثاني في المقطع المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ إرشاد ثانٍ له إلى وجوب الكفّ عن زجر السائل وصدّه وإغضابه، والمعنى الثالث فيه؛ المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ إرشاد ثالث له إلى ما ينبغي عليه فعله تجاه ما أنعم الله به عليه من النعم. فهذه ثلاثة إرشادات قام عليها المقطع الثالث من السورة الكريمة، وتميّز بها عن المقطعين اللذين سبقاه، وواضح كونها معاني متجانسة مؤتلفة متجاورة، منسوق بعضها على بعض بحرف الـ ﴿وَ﴾ للدلالة على هذا التجانس والتآلف والتشاكل القائم بينها، وللدلالة على استقلال كلّ منها عن الآخر، وقد جاءت مرتبة في المقطع متوالية بعضها في إثر بعض أدقّ ما يكون النسق والترتيب والتوالي وأحكمه. فهذه هي المقاطع الثلاثة التي تتركب من مجموعها السورة الكريمة، والتي يتميز كلّ منها عن الآخر من خلال اختصاصه بنوع متجانس مختلف من المعاني؛ أخبارا واستدلالات وإرشادات، وإنما تمّ تصنيفها هنا على أنها مقاطع، ولم تصنّف على أنها موضوعات؛ لأنّها ليست موضوعات مستقلا بعضها عن بعض في القضايا التي

تعالجها، كاستقلال الموضوعات المختلفة في سورة البقرة أو سورة آل عمران؛ في القرآن الكريم، وكاستقلال الموضوعات في كلام العرب؛ على نحو ما هو معروف في القصيدة العربية الطويلة متعددة الموضوعات، وإنّما المقاطع هنا أجزاء موضوع واحد(١)، مركب كل منها من معاني مؤتلفة متجانسة، تدور كلها في فلك واحد، ثم إنّ بين كل مقطع والمقطع الذي يليه علاقة تلازم بيانية عميقة جذرية لا تنفك، بحيث لا يمكن الاستغناء عن أحد هذه المقاطع ولا إسقاطه ــ افتراضا ــ دون أنْ ينطوي ذلك على خلل؛ يذهب بما أقيمت عليه السورة من المقاصد والأغراض، وبما اتسم به تكوينها البيانيّ عامة، ونسقها خاصة؛ من المتانة والدّقّة والجودة والترابط والتكامل والجمال والإحكام. فهذا في شأن مقاطع السورة وعناوينها وتركيب كلّ منها، أمّا في شأن النسق الكلّي لهذه المقاطع وترتيبها وتتابعها في السورة الكريمة؛ وهو المقصود هنا؛ فمن الواضح الجليّ أنّه لم يأتِ هكذا؛ كيفما اتفق، بل جاء على ما يقتضيه نظام الكلام العربي المبين، وما يقتضيه منطق العقل وحسن البيان في نسق الكلام وترتيب أجزائه، وفي الخروج فيه من الباب إلى أخيه، وفي التخلّص من الشيء إلى الشيء الذي يحسن أن يليه. وإذا

(١) السورة كلها تعبّر ــ بسائر معانيها ومقاطعها ــ عن موضوع واحد؛ ليس هناك ما هو أدّق وأليق من تسميته بـ (الضحى).

كان الخروج في هذه السورة الكريمة من المعنى إلى المعنى الذي يليه يقوم على علاقات بيانية دقيقة على ما تمّ بيانه في الوجه الأوّل من نسق المعاني؛ فإن الخروج من المقطع إلى الذي يليه في هذه السورة يشبهه في ذلك.

لقد تبيّن ــ حسب ما ذكر في سبب نزول السورة ــ أنّ الوحي انقطع في تلك الفترة التي سبقت نزول السورة، وأنه قد درجت بين الناس دعوى أنّ محمدا قد (ودعه ربّه وقلاه)، وفرح بذلك المشركون وخصوم محمد، وشقّ ذلك عليه وأحزنه، وأصبح المقام مقام كربٍ عليه ﷺ وحزن ووحشة وغموض وتساؤل عن أمر الوحي، فنزلت السورة لمعالجة هذه القضية، ولحسم الأمر فيها، وكان مما يطابق المقام، ومما يقتضيه حسن البيان أن تُستهلّ السورة بالقضية الأساسية التي هي قضية انقطاع الوحي المكنى عنها بعبارتهم: (ودّعه ربه وقلاه)؛ فبدأ الله تعالى خطاب نبيّه بما يليق بالمقام الحاضر الذي هو فيه، وبما يناسب الواقع القائم، واستهلّ السورة بهدم مقولة المشركين: (ودعه ربه وقلاه) من أساسها؛ من خلال النفي المؤكد بالقسم الإلهي المضاعف: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ مكذبا لهم، وحاملا إليه بهذا الخبر البشرى العظيمة (الأولى) بأن الوحي باق، وأنّه كان معه وما زال وسيظل. ثم إنّه لم يكتف جلّ وعزّ بهذه البشرى؛ بل زاده بشرى

ثانية[1]، إذ أخبره بأنّ كلّ آتٍ من شأنه هو خير له مما سبقه من ذلك الشأن، ولم يكتف بذلك؛ بل زاده بشرى ثالثة؛ إذ وعده بالعطاء، وزاده أكثر عندما وعده بصعود ذلك العطاء إلى درجة الرضا؛ وكما أنّ ذلك عطاء فوق عطاء فوق عطاء فوق عطاء؛ فهو توكيد فوق توكيد فوق توكيد فوق مؤكد، وهذا من بلاغة القرآن العظيم ومن عظمة بيانه؛ فإنه لم يكتف بذكر الخبر الأساسيّ الذي هو قضيّة المقام الأساسية؛ بل زاده ثلاثا عظاما، وهذا أبعد شأوا في تطييب خاطره ﷺ، وأقوى في التوكيد، وأبعد في التثبيت؛ لأنّ من أعطي المطلوب فقد أحسن العطاء ووفى وجاد، فإنْ وعد بأنْ يزيد على المطلوب أمرا واحدا كان أكثر جودا وعطاء، وأشد توكيدا وتحقيقا، وكان وعده بالزيادة أدلّ على إعطاء المطلوب، فما بالك بمن يعد بأنْ يعطي فوق المطلوب ثلاثا عظاما تستغرق الدنيا والآخرة؟. وانتهى المقطع المتعلق بهذه البشائر، وانتهت معه هذه المعاني الخبرية المبشرات، وحسم الأمر بهذه المعاني الثلاثة في شأن رسول الله ﷺ الحاضر والمستقبلي مع الوحي ومع كل أمرٍ آتٍ بلا حدّ في الزمن ولا في النوع. وكما هو ملاحظ؛ فإنّ هذه الأخبار جميعها وما تنطوي عليه من مضامين مفتوحة ومن معاني عظيمة غير محدودة؛ أخبار ومعاني غيبية محضة لم تُر بَعْد، ولم يشهد بوقوعها الحسّ،

(١) انظر: التفسير الكبير ٣١: ٢٠٩، وروح المعاني ١٥: ٣٨٧.

سواء ما يتعلق منها بالحاضر في زمن التكلم أو ما تعلق منها بالمستقبل القريب والبعيد، ولأنّها كذلك، ولعظمة هذه الأخبار، ولعظمة ما تضمنته من بشريات ووعود؛ جاءت جميعها ــ ابتداءً ــ في سياق المؤكدات المضاعفة، لكن لمّا كانت هذه المعاني غيبية محضة، وتضمنت الإخبار عن شؤون تتعلق بالوحي وبالرسالة وبشأنه ﷺ معها، وقد كانت هذه الشؤون مثار خلاف المشركين ودعاواهم واعتراضاتهم وإنكارهم في الحاضر والوحيُ ينزل؛ لزم ــ على ما يقتضيه كلام العرب ومذاهبه وسننه ومجاريه في البيان، وعلى ما يقتضيه منطق العقل، وما يقتضيه حسن البيان وإحكامه وبلاغته في الإقناع في مثل هذا الموضع من الكلام وفي مثل هذا الحال وهذا المقام ــ أن يُتبع ما ذُكِر ــ نفيا وإثباتا من الأخبار والمعاني الغيبية التي لا تعلم بغير الخبر الإلهي والإيمان القلبي ــ بالأدلة الواقعية الحسيّة، وبالبراهين الظاهرة، وبالحجج الساطعة القاطعة المعلومة بالحسّ والمشاهدة، المقاسة بالعقل والمنطق؛ فنُسِق ــ على طريقة القياس الاستثنائي في ما سمّي في أبواب البلاغة والبيان بـ (المذهب الكلامي) ــ على هذا المقطع الاستهلالي ذي الصبغة الخبرية الغيبية المحضة المقطعُ الثاني ذو الصبغة الاستدلالية الحسية الواقعية المحضة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾، فجاء المقطع الثاني

مؤسسا على المقطع الأوّل، وجُعل بعده في نسق مقاطع السورة وترتيبها وتواليها، ورُبط به من خلال أسلوب الفصل[1] بين آخر المقطع الأول وأول المقطع الثاني؛ هكذا: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ ﴾ لشبه كمال الاتصال بينهما، تعبيرا عن متانة العلاقة البيانية بين المقطعين ونوعها. وقد تضمن هذا المقطع ــ كما اتضح آنفا ــ ثلاثة معاني تمثل معاً الأدلّة الواقعية الساطعة على تحقيق ما ورد في المقطع الأوّل من المعاني المبشّرة الغيبية المنفية والمثبتة، وتشكّل البراهين والحجج الحسية المضاعفة على أنّ تلك الأخبار الغيبية مقطوع بحصولها، قال الزمخشري: "عدّد عليه نعمه وأياديه، وأنّه لم يخله منها من أوّل تربّيه وابتداء نشئه، ترشيحا لما أراد به، ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه، لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة، ولا يضيق صدره، ولا يقل صبره"[2]، وقال الألوسي في استهلال تفسير المقطع الثاني: "تعديل[3] لما أفاض الله على سوله ﷺ من أول أمره إلى وقت النزول من فنون النعماء العظام ليستشهد بالخاص الموجود على

(١) انظر: روح المعاني ١٥: ٣٨٠.

(٢) الكشاف ٤: ٧٧١، وانظر: التسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤٩٠، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٢.

(٣) هكذا وردت هذه اللفظة في الكتاب، وربّما كان الصواب: (تعداد).

المترقب الموعود"[1]، وهذه الأدلّة والبراهين والحجج لا تشكل أدلّة وبراهين وحججا واقعية حسية مشاهدة فحسب، ولو اقتصرت على ذلك لكفى بها استدلالا وتوكيدا؛ بل هي فوق ذلك منتزعة من حياة رسول الله صلى عليه وسلم الواقعية الماضية[2] نفسها؛ التي عاشها على الحقيقة عُمُرا مديدا، وعلمها بسائر مداركه علما عمليا قاطعا، وخبرها خبرة فعلية، كما رآها وعلمها وخبرها قريش وغير قريش، ومحبوه وأعداؤه، وأنصاره ومناوئوه، وأقاربه وأباعده، فدلّ بذلك على أنّ تلك الأخبار واقعة ــ على ما جاءت به الأخبار؛ نفيا وإثباتا، حاضرا ومستقبلا ــ لا محالة، مقطوع بها، مفروغ من أمرها؛ كما هو مقطوع بحصول تلك الأحداث الحسية الواقعية في حياة رسول الله الماضية، مفروغ من أمرها، وهذا أبعد وأجلى وأشدّ في التدليل والبرهنة والاحتجاج، لأنّه يتضمن معاني أبعد؛ منها أنّ من فعل ذلك بلا وعد هو من سيفعل هذا الذي بشّر به ووعد، ومن فعل ذلك في شأن محمد في عمر الطفولة والصبا والشباب قبل التكليف والوحي والرسالة هو أحرى بأن يفعله في شأنه بعد التكليف والوحي والرسالة، ومن ضَمِن شؤونَ محمد الخاصة المذكورة؛ هو أحرى بأن يضمن شؤونه الكونية التي كلّف بها. ومما يجب التنبيه إليه هنا

---

(١) روح المعاني ١٥: ٣٨٠، وانظر: التفسير البياني للقرآن الكريم ص٤٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير ٣١: ٢١٢، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٢.

أن الرسول ﷺ لا يعارض ما أُخبِر به، ولا يتردد فيه[1]، لكن القرآن ليس لخطاب الرسول وحده؛ بل لخطاب البشرية كلها؛ وفيهم قريش، والأمر هنا مبني على افتراض المعارضة، لما هو معلوم مطّرد في شأن أحوال أنبياء الله مع أقوامهم، لذلك أقسم، وأكد، واستدلّ. وهكذا فإنّ الانتقال في الكلام من المقطع الأوّل إلى المقطع الثاني هو من باب الانتقال في الكلام من ذكر الأمر إلى ذكر برهانه، ومن ذكر الشيء إلى ذكر الدليل عليه والاحتجاج له، وهذا الخروج من الأخبار الغيبية التي ضُمّنتْ تلك البشائر إلى هذه المعاني الاستدلالية هو خروج في غاية الحسن والجودة والمتانة والإحكام والكمال في البيان. وبانتهاء ذكر هذه النعم الثلاث على وجه التقرير والتذكير والاستدلال ينتهي هذا المقطع كله، ويتم الاستدلال، ويغلق باب التوكيد المضاعف الذي فُتِح ــ صلا ــ بالقسم، وتنتهي معالجة القضية التي نزلت السورة من أجلها، ولم يبق إلا أن تختم السورة الكريمة بالمقطع الثالث. وإذا كان الانتقال من المقطع الأول إلى المقطع الثاني هو خروج في الكلام ــ من خلال أسلوب الوصل ــ من ذكر الأمر إلى ذكر برهانه، ومن ذكر الشيء إلى ذكر الدليل عليه والاحتجاج له؛ على طريقة ما عرف في البلاغة باسم المذهب الكلامي؛ فإنّ انتقال الكلام من المقطع الثاني إلى المقطع الثالث هو

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٦٨.

خروج فيه ــ على طريقة اللف والنشر المَرَتَّب[1] ــ من ذكر تلك النعم الثلاث التي ذكرت على سبيل الاستدلال إلى التوجيه بما يجب من شكرها، وإلى الإرشاد إلى ما ينبغي فعله نظيرا لها، وقد دلّت الـ ﴿فَ﴾ الفاخرة في استهلال هذا المقطع على كون ما سبقها سببا للمقطع الآتي وعلة له، وعلى كون المقطع الآتي بمعانيه الثلاثة جاء في نسق مقاطع السورة وترتيبها وتواليها ثالثا وأخيرا؛ ليكون بمثابة النتيجة المسَبَّبة عمّا سبق، والجزاء الذي على المخاطب أن يجازي به على ما ذكر من النعم، وليكون شكرا عمليا وامتنانا فعليا عليها، قال البقاعي: "ولمّا ذكّره بما أنعم عليه به من هذه النعم الثلاث أوصاه بما يفعل في ثلاث مقابلة لها؛ فقال مسبّبا عنه ...: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ﴾"[2]، وقال الزمخشري في إشارة إلى هذا المعنى: "المعنى أنك كنت يتيما وضالا وعائلا؛ فآواك، وهداك، وأغناك، فمهما يكن من شيء...؛ فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، واقتد بالله، فتعطّف على اليتيم وآوه، فقد ذقت اليتم وهوانه، ورأيت كيف فعل الله بك، وترحّم على السائل وتفقده بمعروفك، ولا تزجره عن بابك،

(١) انظر: المصدر نفسه ٣٠: ٣٥٤، ٣٥٥، وروح المعاني: ١٥: ٣٨٤.

(٢) نظم الدرر ٨: ٤٥٧.

كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر، وحدّث بنعمة الله كلها"[(١)]. وبهذا يبين جليا القدر العالي من الجودة والدقة والمتانة والإحكام الذي جاء عليه نسق مقاطع هذه السورة في معانيها الداخلية أوّلا، ثم في ترتيبها هي بعضها في إثر بعض، وتواليها، وتتابعها في السورة، وإنّك لتجد الدليل ساطعا في الفرق بين الصورتين في القوة والمتانة والإحكام وبلاغة الإقناع، وفي البيان القاطع للمقال؛ فيم لو أنّ السياق القرآني قد توقف عند نهاية المقطع الأوّل، وانتهت السورة عند قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، أو في آخر المقطع الثاني، عند قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، أو كان الخروج من المقطع الأول إلى المقطع الثالث مباشرة، فجاء على هذه الصورة: (ولسوف يعطيك ربك فترضى. فأمّا اليتيم فلا تقهر). والخلاصة أنّ هذا باب عجيب من أبواب إعجاز القرآن، وسمة بالغة الوضوح، بالغة الدلالة على ما هو عليه من غرابة وعجب.

---

(١) الكشاف ٤: ٧٧٢ ــ ٧٧٣. ويلاحظ أنه جعل (السائل) بمعنى طالب الحاجة، وترك لفظة (السائل) مطلقة أقوى وأليق بالسياق، وألصق بدقة النسق، وبصيغة (ال) الجنس المطلقة، ولم يقيد في الآية، وحصره في طالب الحاجة خروج عما يقتضيه البيان.

الوجه الثالث: النسق المعنوي التناظري

عرض في الوجهين السابقين تفصيلات نسق معاني السورة الكريمة وترتيبها وتواليها على المستوى الجزئي المتعلق بترتيب المعنى في النسق نسبة إلى جاريه السابق له واللاحق، وعلى المستوى المقطعي المتعلق بترتيب مقاطع السورة الثلاثة وتواليها بعضها في إثر بعض، وفي هذا الموضع الأخير يتم الوقوف على وجه آخر وأخير من وجوه نسق معاني السورة، وهو وجه كلّي مكمل لنسق المعاني على الوجهين السابقين؛ لكنه أدقّ مسلكا مما سبقه، وأبعد في الغرابة، وأشدّ في الدلالة على الدقة والمتانة والإحكام والجمال والخصوصية التي جاء عليها نسق معاني هذه السورة وترتيبها وتواليها وتسلسلها. لقد اتضح مما سبق قيام النسق النحوي على العلاقات النحوية القائمة بين عناصر تكوين الجملة، وقيام نسق المعاني وترتيبها في السورة على المستوى الجزئي على علاقات التجاور الخطيّة الجزئية بين المعنيين المتجاورين على ما تمّ بيانه في مواضعه، واتضح كذلك قيام نسق مقاطع السورة على علاقة التلازم البياني العميق بين المقطع والمقطع الذي يليه على ما تمّ بيانه في كل من الموضعين؛ أمّا نسق المعاني وترتيبها وتواليها على هذا الوجه الأخير؛ فإنه يقوم على علاقات "التناظر" الكلية القائمة بين المعاني الرئيسة داخل مقاطع السورة من أوّل السورة إلى

آخرها، وعلى ما بين المعنى في المقطع ونظيره في المقطع الآخر من التشاكل والتجانس العامّ الملاحظ بينهما، وقد لمّح العلماء رحمهم الله إلى هذا الطّراز من النسق والترتيب في معاني السورة، وأشاروا إشارات خاطفة عجلى إلى بعض تجلياته، ولأنّ هذا الوجه من نسق المعاني في هذه السورة ساطع على نحو لا يمكن معه إهماله أو تجاهله، ولأهميته في تمام تصوير نسق معاني السورة وتشخصيه في أبعاده المختلفة، ولدقة مسلكه وجماله وغرابته، ولدلالته على جودة البيان وإحكامه؛ فهو جدير بالتدقيق والتحرير والتحليل والتفسير، وفي ما يلي تتبّع هذا الوجه من نسق معاني السورة وعرضه.

لقد استهلت السورة الكريمة ــ على ما مرّ ــ بالمقطع الأول المركب من المعاني الخبرية الثلاثة الرئيسة الأولى، ثم نسق على ذلك المقطعِ المقطعُ الثاني المركب من المعاني الاستدلالية الرئيسة الثلاثة الوسطى، ومن الجلي أنّ النسق الكلي للمعاني لم يقف عند نسق المقطع الثاني على المقطع الأول على ما مرّ بيانه؛ بل ظهر فيها نسق كلّي آخر؛ تفصيليّ داخل المقطعين، وذلك أنّ معاني المقطع الثاني قد نُسقت على معاني المقطع الأول، وترتبت على ترتيبها وتوالت على توليها، فالمعنى الرئيس الأول في المقطع الثاني المُعَبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ يناظر ــ في

الموضع وفي النسق والترتيب ــ المعنى الرئيس الأول في المقطع الأول المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾؛ لأنه يشاكله من حيث أنّ (نفي التوديع والقلى وذكر الله تعالى بصفة الربوبية وإضافة المخاطب إلى ربّه) يتضمن إثبات المعية والقرب والمحبة والرحمة واللطف والرعاية والعناية، وهذه معان تناسب اليتم والإيواء وما فيهما من اللطف والرعاية والعناية، ولذلك جاء منسوقا عليه مرتبا في هذا الموضع من المقطع الثاني على ترتيبه. والمعنى الرئيس الثاني من المقطع الثاني المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ يناظر ــ في الموضع وفي النسق والترتيب ــ المعنى الرئيس الثاني من المقطع الأوّل المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ لأنه يشاكله ويلائمه من حيث أنّ (الوعد بخيرية الآخرة على الأولى) يتعلق أوّل ما يتعلق بشأن الوحي والهدى والإسلام التي جاءت بعد الجاهلية والضلال والكفر، والجاهلية والضلال والكفر داخلة في عموم دلالة الأولى، والوحي والهدى والإسلام داخلة في عموم دلالة الآخرة. ويأتي المعنى الرئيس الثالث من المقطع الثاني؛ المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ ليناظر ــ في الموضع وفي النسق والترتيب والتوالي ــ المعنى الرئيس الثالث في المقطع الأوّل المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ لأنه يشاكله ويلائمه، من حيث

تعلقهما دلاليا ــ معا ــ بالفقر والغنى والعطاء والمال والرزق. ومن اللافت ــ فوق ذلك ــ أن تقابل الأخبار الغيبية الثلاثة في المقطع الأول بثلاثة معان استدلالية في المقطع الثاني، ومن اللافت أكثر أن يشاكل كلّ منها نظيره في نسق المقطع وترتيبه. والأعجب أنْ يطّرد هذا النمط التناظري الكلي من نسق المعاني وترتيبها في المقطع الثالث إلى آخر السورة، حيث نسقت المعاني الثلاثة فيه على نسق معاني المقطع الثاني الثلاثة، ورتّبت على ترتيبها وتوالت على تواليها، فالمعنى الرئيس الأول في المقطع الثالث؛ المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ يناظر ــ في الموضع وفي نسق المعاني وترتيبها ــ المعنى الأول في المقطع الثاني؛ المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[1]؛ لأنه يشاكله ويلائمه، من حيث أنهما ــ معا ــ يتعلقان باليتم واليتيم وشؤونه، قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾: "المعنى: عامله بمثل ما عاملتك به"[2]، والمعنى الثاني في المقطع الثالث؛ المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ يناظر في الموضع وفي النسق والترتيب والتوالي المعنى الرئيس الثاني في المقطع الثاني؛ المعبّر

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤.

(٢) التفسير الكبير ٣١: ٢١٧.

عنه بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾[1]؛ لأنه يشاكله من حيث أنهما ــ معا ــ يتعلقان بالجهل والعلم والضلال والهدى والمعرفة والسؤال[2]، وأخير يأتي المعنى الرئيس الثالث في المقطع الثالث؛ المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ نظيرا ــ في الموضع وفي نسق المعاني وترتيبها وتواليها ــ من وجهٍ ــ المعنى الرئيس الثالث في المقطع الثاني؛ المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[3]؛ لما هو ظاهر جليّ بينهما من التشاكل، ثم هو منسوق ــ من وجه ثانٍ ــ على سائر معاني السورة، إذ جاء خاتمة لها وإغلاقا لمعانيها، لأنّ كلّ واحد من المعاني الرئيسة الثمانية التي سبقته يعبّر ــ في الحقيقة ــ عن نعمة قائمة برأسها، هذا فضلا عن سائر نعم الله عليه ﷺ، وقد أشار إلى ذلك السيوطي إذ قال: "فحدّث: أمرٌ من الله لرسوله أنْ يحدّث بنعمه، وهي القرآن، والرسالة، وجميع النعم التي أعطاه من دينية ودُنياوية"[4]، وقال الشوكاني: "الظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها، أو نوع من

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٥.

(٢) انظر: البحر المحيط ٢١: ٣٩٧، وأضواء البيان ٧: ٣٢٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٦.

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ١: ١٢٦.

أنواعها"[1]، وهذا يناسب تماما الشيوع الذي تعبر عنه عبارة ﴿نِعْمَةِ رَبِّكَ﴾؛ فليس فيها الدلالة على نعمة خاصة. ولقد أشار العلماء إلى علاقة التناظر الكلية هذه بين معاني المقطعين الثاني والثالث، وإلى نسق المعاني في المقطع الثالث وترتيبها وتواليها على نسق ما كان ورد من المعاني في المقطع الثاني، ومقابلة تلك بهذه في النسق، قال ابن عطيّة: "وكما عدد الله عليه هذه النعم الثلاث وصّاه بثلاث وصايا في كل نعمة وصية مناسبة لها، فبإزاء قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، وبإزاء قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ قوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، .... وبإزاء قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾"[2]، وقال السيوطي: "وانظر كيف ذكر الله في هذه السورة ثلاث نعم، ثم ذكر في مقابلتها ثلاث وصايا"[3]، وقال الألوسي في الآيات الثلاث الأخيرة: "وهذه الجمل الثلاث مرتبة على ما قبلها"[1].

---

(١) فتح القدير ٤: ٣٢٠٤.

(٢) المحرر الوجيز ٥: ٤٩٤ ــ ٤٩٥، وانظر: التفسير الكبير ٣١: ٢١٣، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤، وأضواء البيان ٧: ٣٢٣.

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن ١: ١٢٦، وانظر: التفسير الكبير ٣١: ٢١٣، والتسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤٩١، والبحر المحيط ٢١: ٣٩٧، ٣٩٨، وتفسير القرآن العظيم ٨: ٣٨٠٢، ونظم الدرر ٨: ٤٥٤، ٤٥٧، والبحر المديد ٨: ٣٢٠، وفتح القدير ٤: ٣٢٠٤، وروح المعاني ١٥:=

وهكذا يتضح جليّا أنه لا يقوم نسق المعاني وترتيبها وتواليها في السورة الكريمة على ما تمّ بيانه في الوجهين السابقين: الجزئي والمقطعي من العلاقات البيانية؛ بل يقوم ــ إلى جانب ذلك ــ على علاقات بيانية من التناظرات والتشاكلات الكلية الممتدة في السورة من أولها إلى آخرها، مما جعل معاني السورة تظهر ــ نتيجة هذا النسق المركّب ــ في صورة أشبه ما تكون بعِقْدٍ فاخر، منظّم، متضامّ الأجزاء، دقيق التركيب والترتيب والتوالي من طرفه إلى طرفه، كحلقة متصلة الأجزاء يعود آخرها على أوّلها، وهذا في الحقيقة جانب عجيب غريب، ولافت جدا، وهو حريّ بالدراسة والتتبع في القرآن العظيم.

وبهذا تمت هذه الدراسة؛ بمحوريها: النظريّ: الذي عُني بتتبّع مصطلح النسق من جهة دورانه في كتب العلماء، ومفهومه عندهم، ومن جهة حضوره ــ مصطلحا ومفهوما ــ في إشاراتهم، وفي معالجاتهم النظرية والتطبيقية، وعني به كذلك من حيث تحديد مفهومه المقترح، وبيان محدداته؛ تحديدا وبيانا مبنيين على فهم العلماء، وعني به من حيث الفرق بينه وبين غيره من المفاهيم

٣٨٤، والتحرير والتنوير ٣٠: ٣٥٤ــ ٣٥٦، والتفسير البياني للقرآن الكريم ص ٥٤.

(١) روح المعاني ١٥: ٣٨٤.

البيانية الجزئية والكلية: والتطبيقي؛ الذي عني بتتبع أبرز معالم نسق مكونات هذه السورة الكريمة وترتيبها وتتابعها على المستويين: النحوي والمعنوي؛ بأوجهه الثلاثة: الجزئي والمقطعي والتناظري، ومعالجته على هذه الصورة التحليلية البيانية التفصيلية، والكشف عن وجوده في السورة على هذه المستويات والأوجه، وبيان ما يقوم عليه ــ على تلك المستويات والأوجه ــ من المسوغات والعلل والعلاقات، والكشف عمّا ما حفل به من الأسرار والدقاق واللطائف البيانية. وإذا كان النسق ــ مع اقتصار هذه الدراسة على معالمه الكبرى ــ قد ظهر في هذه السورة الكريمة القصيرة على هذه الصورة التفصيلية الواسعة، المفعمة بالعلاقات البيانية المتينة، وبالخفايا واللطائف، المثيرة بما هي عليه من الدّقة والإحكام والجودة والجمال، فما بالك به في ما هو أطول من هذه السورة من السور؟؛ بل ما بالك به في القرآن الكريم كله.

فهرس المصادر والمراجع

١-إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط.

٢-أضواء البيان، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الدار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٣-إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، أبو عبدالله الحسن بن أحمد (ابن خالويه)، مؤسسة الإيمان، بيروت ـ لبنان، د. ط.

٤-إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار الإرشاد، حمص ـ سوريا، ودار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٥-إعراب لامية الشنفرى، أبو البقاء محب الدين عبدالله بن أبي عبدالله الحسين بن أبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، تحقيق: محمد أديب عبدالواحد جمران، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٦-أوضح المسالك، أبو محمد عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله الأنصاري المصري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩.

٧- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت، طبعة ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م

٨- البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي وآخران، دار الرسالة العالمية، دمشق ــ سوريا، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ــ ٢٠١٥م.

٩- البحر المديد، أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، تحقيق: عمر أحمد الراوي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، طبعة ١٤٣٦هـ ــ ٢٠١٥م.

١٠-بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر، والتوزيع، د.ط.

١١-البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ ــ ١٩٧٢م.

١٢-التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، اعتنى به: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب

العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م.

١٣-التبيان في أيمان القرآن، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيّم الجوزية، تحقيق: عبدالله بن سالم البطاطي، مطبوعات: مجمع الفقه الإسلامي. جدة، تمويل: مؤسسة: سليمان بن عبدالعزيز الراجحي الخيرية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، د. ط.

١٤-تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، جمهورية مصر العربية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، القاهرة ١٣٨٣هـ.

١٥-التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م.

١٦-التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جُزَي الغرناطي، اعتنى به: د. عبدالله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت ــ لبنان، د،ط.

١٧-التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.

١٨-تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنّا، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م.

١٩-التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن التميمي الرازي، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، الطبعة الثالثة ٢٠١٥م.

٢٠-تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مطبعة الحلبي، القاهرة، الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

٢١-الجدول في إعراب القرآن وصرفه، تصنيف: محمود صافي، مراجعة: لينة الحمّصي، دار الرشيد، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٨م.

٢٢-جوهر الكنز، نجم الدين بن إسماعيل بن الأثير الحلبي، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط.

٢٣-خزانة الأدب ونهاية الأرب، تقيّ الدين أبو بكر علي بن عبدالله المعروف بابن حجة الحموي، تحقيق: د. محمد ناجي أبو عمر، دار الكتب العليمة، بيروت ــ لبنان.

٢٤-دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، تعليق: أبو فهر/ محمود محمد شاكر، شركة القدس

للنشر والتوزيع، الناشر: مطبعة المدني بمصر، ودار المدني ــ جدة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م.

٢٥-رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبدالنور المالقي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة ١٤٣٥هـ ــ ٢٠١٤م.

٢٦-روح المعاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، ضبط: علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م.

٢٧-سر الفصاحة، أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، طبعة ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م.

٢٨-شرح ديوان حسان بن ثابت، عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، د.ط.

٢٩-شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعه: أبو العباس ثعلب، اعتنى به: د. حنّا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م.

٣٠-الصاحبي في فقه اللغة العربية، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، اعتنى به: أحمد حسن بسج، دار الكتب العليمة، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م.

٣١-فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الدار العالمية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.
٣٢-فقه اللغة وسرّ العربية، أبو منصور الثعالبي، اعتنى به: خالد فهمي، تصدير: د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
٣٣-الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، عالم الكتب، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٣٤-الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتَجَب الهَمَذاني، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيّح، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنوّرة ـ السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.
٣٥-الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، اعتنى به: محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.
٣٦-لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
٣٧-اللباب في علل البناء والإعراب، محب الدين عبدالله بن الحسين البغدادي (أبو البقاء العكبري)، تحقيق: محمد عثمان،

مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

٣٨-اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٣٩-المجتبى، د. أحمد محمد الخرّاط، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

٤٠-المحرر الوجيز، أبو محمد عبد الحقّ بن غالب بن عطيّة. تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٤١-معاني الحروف، أبو الحسن علي بن عيسى الرُّمّاني، تحقيق: عرفان بن سليم العشا حسونة، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، لبنان، طبعة ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٤٢-معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء، تحقيق: د. عماد الدين بن سيد آل الدرويش، عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

٤٣-معترك الأقران في إعجاز القرآن، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر السيوطي، ضبط: أحمد شمس الدين، دار الكتب العملية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

٤٤-معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة الرياض للنشر والتوزيع، الرياض، ودار الجيل، بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م.

٤٥-المعجم الوسيط، أخرجه: إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول ــ تركيا، الطبعة الثانية.

٤٦-مغني اللبيب، أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت، طبعة ١٤٣٦هـ ــ ٢٠١٥م.

٤٧-مقدمة تفسير ابن النقيب، محمد بن سليمان البَلْخي المقدسي الحنفي الشَّهير بابن النَّقِيب، المطبوع خطأ بعنوان: الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان؛ لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن أيّوب الزرعي المعروف بـ [ابن قيم الجوزية]،

كشف عنها وعلّق على حواشيها: الدكتور/ زكريا سعيد علي. مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥.

٤٨-نظم الدرر، أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، اعتنى به: عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٤٩-النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، مراجعة: السيد عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

٥٠-نهاية الإيجاز في دراية الأعجاز، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن التميمي الرازي، تحقيق: د. بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.